قبلات محطات السفر

مجموعة قصصية

عبد الفتاح مرسى

من إصدارات :

هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالإسكندرية

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٧٩١٢
الترقيم الدولى: 17 - 179 – 327 – 977

هذه القصص

.. أردت لها أن تكون كقبلات محطات السفر تتجاوز مطالب الجسد .. وتحلق فوق الواقع وفيها حاولت (الطيران بدون أجنحة). ولكنى كنت (محاصر) بالأزرق والوردى .. وتلك المسافة التى يتيحها "السياف" وتتطلع إليها "العيون" ولعل افتقادى للطمأنينة..

أن - دائمًا - كان هناك - واحد أسمه (شيخو) لم يكن شيخا حقيقيًا .. ولكنه فرض نفسه علنيا .. ليحيل حياتنا إلى تبكيت وتحريم ..

ويدفعنا دفعًا إلى القبر ..

لنجعل منه. مسكننا وسكينتنا ..

وكما سترون .. أمكن لى أن أفلت من "النكد" بأسلوب عبد الفتاح مرسى الخاص!!

د. محمد زكريا عنانى

قبلات محطات السفر

.. لم تكن حبه الأول .. ولكنها كانت حبه الأعمق.. برغم التناقضات التى بينهما ، فيما يختص بالموقع الطبقى والموقف الثقافى إلا أن حماس الشباب وتمرده أزال هذه العوائق .. هى التى جعلته يلقى بعادات وتقاليد الطبقة الوسطى الصغرى ، فى مياه الميناء الشرقى الممتد أمام مكانهما المفضل ، الذى يجمع بينهما ، مع شلة من الأصدقاء والمعارف ، فى تلك المقهى التى يقع جانبها السياحى غربا وجانبها الشعبى شرقا .. بكل ما يتسم به الجانبان من مظاهر الضوضاء .. والهدوء ، واللقاءات على طاولة القواشيط ، أو اللقاء على مناقشة كتاب أو حتى تبادل كلمات الغرام ... !

فمنذ انهيار البورصة ، لم تعد هذه المقهى تعبر عن اسمها إذ صارت منتدى ... !

و « سهى » التى عاشت طفولتها فى انجلترا ، بحكم عمل والدها فى السلك الدبلوماسى فى الخارج .. والتى أمضت شطرا من صباها فى أمريكا ، ولتطورات شملت موقف والدها السياسى ، انتهى به الأمر إلى وظيفة بالداخل .. ثم إحالة إلى المعاش .. أو إبعاد .. مات بعدها عميد الأسرة ، فصارت (سهى) طالبة دراسات عليا فى كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ..

وانقلبت (سهى) إلى - الوجه الذى لم تكن تعرفه - إذ صار لا يحلو لها لقاؤه إلا فى الشوارع المزدحمة بالناس ، فى الميادين والمقاهى والمحطات .. . !

وكانت لها ابتكاراتها - لتتغلب على فضول الناس الذين لم يعتادوا - أن يقبل الشاب فتاته فى الطريق العام ، وكلما اشتاق إلى ذلك .. كانت تتواعد معه على أرصفة المحطات الرئيسية .. سيدى جابر .. محطة الاسكندرية ..

وعندما يدلف القطار القادم من سفر بعيد إلى الرصيف ، ويفرغ ركابه ، تحتضنه ويستغرقان فى مجموعة من القبلات العنيفة .. !

وكان لهذه القبلات طعم ونكهة تختلف عن القبلات التى قد يحصل عليها فى نهاية توصيلة ،أوعلى باب الڤيللا ، تحت تهديد نظرات البواب ، أو أحد السكان من الجيران ..

وكانت (سهى) تختلف عن معظم البنات .. فهى لا تقف طويلا أمام الأثواب والمجوهرات و ...أدوات الزينة ، ولها ملابسها التى تشبه ملابس الشبان .. إذ تفضل ارتداء البنطلون والجاكت الجلد أو الشمواه .. وتلك التلفيعة الصوف الطويلة فى الشتاء .. والبنطلون والقميص فى الأيام الأخرى ، مع بلوڤر خفيف فى الصيف ..

وغرامها ينصب على شراء الكتب والدوريات ، فلا تمر على بائع كتب وصحف ، أو يمر عليهم فى المقهى بائع كتب وصحف ، حتى

تفرغ كيس نقودها على ما يلزمها ، وما لا يلزمها.حتى أن - جمال - كان يسألها : « هل تجدين وقتا لتتصفحي كل ما تشترينه يوميا ، تلك الأحمال التي تعودين بها إلى بيتك .. ؟

كانت تضحك وتندس في صدره ، وقد تلمح له بأن الدراسات العليا - هي دراسات في أفكار الناس - إذ ينتهي الطالب من دراسة وتكوين فكره الخاص في السنوات السابقة .. والدوريات والمطبوعات لا تزال أشد واقعية وجرأة من أحاديث تقال في الراديو أو التلفاز .جمال لايقف طويلا أمام هذه المناقشة .. حتى لا تعتقد أنه ينعى نقوده التي يدفعها ، إذا ما فرغ كيسها من النقود .. وهي إذا اشترت الدوريات والكتب الجديدة ، تكون متلهفة على تصفحها ومطالعة عناوينها قبل حضور أفراد «الشلة» وبدء المناقشات واحتدام الجدل ..

لقد صار - الجدل - في المقهى .. الجانب الآخر المضيء من غرامهما .. والذي لا ينفصل عن الجانب الحسي والعاطفي السري والعلني من تلك العلاقة .. والتي كانت - واقعيا - لا تقوم على قدمين متساويين ... !

إذ أن سهى .. برغم وفاة عميد الأسرة .. فهي تنتمي إلى أسرة ثرية ، ومعظم أعمامها وأخوالها ، في مناصب عليا ، ويعيشون على قمة المجتمع ..

بينما .. أعلى وظيفة شغلها أبو جمال ، كانت مدرس أول في مدرسة إعدادية . والمدرس الأول في المدرسة الإعدادية أنشأ ابنه

- يخشى السياسة - ويبتعد عن الجدل الذى لا طائل وراءه .. عوده بأن ينفق مصروف جيبه فيما يأكله ، ويستفيد منه جسمه .. وليس فى الكتب والمجلات والأفلام و ... تلك الأشياء التى يرى أن لا طائل وراءها إلا وجع الدماغ ..بل يطلق عليها - الكلام الفارغ ..

وكانت (سهى) تعرف - ببساطة - حياة جمال .. وهزيمته ، بل وهزائمه أمام الحياة التى يحياها .. والتى لايتطلع بأن يعيشها شاب غادر عامه الثامن والعشرين فى وداع مؤثر .. إذ انه (محلك سر) ، يعيش كجزء من عائلة .. يتساندون جميعا على دخل محدود ، وإذا بحث عن وظيفة ، وقد أغلقت مكاتب العمل أبوابها ، وشرعوا فى تصفية قطاع الأعمال ، بعد القضاء على القطاع العام .. لا يجد أمامه إلا المشاريع الخاصة-فعمل فى شركة توزيع منظفات صناعية ، بمرتب يخضع معظمه لنظام عمولة البيع .. !

وما تراه (سهى) فكة ، فى كيس نقودها .. يراه جمال .. ثروة ، ومرتب شهر من العمل الشاق ... !

وقد ولد غرامهما وشب عن الطوق حتى طال شفتيها وصدرها .. ومع ذلك فلم يخطر على بال جمال - أنه يوما - يستطيع أن يكون له بيت يضمه مع (سهى) .. خياله لم يجرؤ على التصور .. !

مع أن سهى مالت إلى الحياة الشعبية .. ولكنها تمارسها كسائحة أجنبيه ، تلبس الطربوش والجلباب الشاهى وتتجول فى الأحياء

القديمة .. وفى ظنها أن هذه الملابس لا تزال تستعمل فى مصر إلى اليوم .. !

المقهى .. والشلة .. والجدل .. لم تعد بالنسبة لسهى أشياء لقتل الوقت .. بل ترى أنها أشياء لإحياء الوقت ووصله بعكس ما يظن جمال .. الذى صار يعيش حياتين .. عليا مرفهة .. مثقفة مع سهى والشلة ..

وسفلى .. مزعجة .. محملة بالشكوى والتجهم مع عائلته التى تشكو لطوب الأرض ، حول عدم مساهمته فى مصروف البيت .

وكان من الطبيعى أن ينجذب جمال إلى ساحة سهى الزاخرة بالأحاسيس المبهجة والأفكار الهائمة .. والصراعات ، حتى إذا كانت هذه الصراعات بين شلة واحدة فى جدل سياسى أو ثقافى ، فقد كان يحمله على أجنحة التحدى .. ويدفعه إلى حالة من ممارسة ردود الأفعال ..

وإن كان جمال – عكس – عاطف فضل .. الذى كان قطب الجزء الذى يتحدى ، ليمتد الجدل وتزداد إثارته ، كان جمال يجد صعوبة فى فهم كثير من القضايا .. التى يتجاذبها الأصدقاء والمعارف ، وهم يتناولون جوانب من التاريخ والاجتماع ، الشعر والمسرح .. الاقتصاد والمذاهب السياسية التى تحركه .. السريالية والرمزية ، وعلاقتها بالحروب الكبرى ، الديكتاتورية والبيروقراطية ، وميدانهما الفقر والجهل .. القومية وعشق الأرض والشعوبية وعشق الذات ..

كلمات تصدم أذن – جمال – المغلقة ، فلا تخلف إلا الطنين .. ولكنه .. إذا ما أبدى تأييدا – لسهى – وكرر بعض الجمل التى تثار أمامه ، فأنه يضمن اقترابا شديدا من ذلك البدن اللدن الذى يتوارى خلف الملابس الرجالى الخشنة ، والقمصان الواسعة ..

هم يتجادلون .. وهو يتعبد فيما وراء الاحتدامات ، تأسره لمعة شفتيها ، وبريق عينيها .. صوتها فى التعبير عن التحدى .. أو فى لحظات الفوز ، وتراجع – عاطف فضل – ومؤيديه ، هنا تنفعل وتطوق جمال بذراعيها فيرفع بصره ليرى أثر ذلك فى العيون ..

لكن الشلة كانت تعرف أن (سهى) تفضل – جمال – وهم ليعبروا لهما عن مدى تطورهم الحضارى ، لم يكن أحد يحاول التدخل فى تلك العلاقة ، وفى ظنهم أنها صداقة حميمة لم تتطور إلى (غرام) ، وربما يتم قبول جمال – كواحد من الشلة – التى يتميز معظم أفرادها بشئ من الثقافة والمعتقدات التى تختلف بداخل إطار يجمعهم ، بينما جمال خارج المجال الثقافى تماما ، وجوده يرتكز على بطلة الشلة – سهى – التى تثرى اللقاء بغزارة ثقافتها .. وبموقفها الواضح .. المؤيد تماما للحضارة الغربية ومعطياتها ، وذلك الموقف الذى يتصادم مع الحضارة الشرقية ، وثوابتها .

وكان – الضد – عاطف فضل .. أثناء المناقشات ، وتكرار هزائمه أو تراجعه المهذب ، كان فى الواقع يكسب خطوات فى اتجاه عاطفة (سهى) التى لا ترى للسهرة لونا إذا ما غاب عاطف.وقد شعر جمال

بذلك ، ورأى بعين المحب الولهان دبيب خطوات عاطف نحو قلب سهى ، فتسللت الغيرة إلى نفسه .. ثم بدأت الغيرة فى نهش قلبه .. عندما أكثرت .. سهى .. فى وجود عاطف فضل أو فى غيابه ، من ذكر الأحداث التى بينهما ، أو التى أعدتها له .. لتفحمه بها .. !

وقام جمال ، بعمل تجربة ليتبين مدى اهتمامها به ..

ادعى المرض ، وانقطع عن الحضور إلى المقهى مع الشلة .. وعلم أن اللقاءات تتم .. والمناقشات محتدمة بين سهى وعاطف .. وبعد اليوم الرابع .ذهب عاطف إلى بيته لزيارته ليبلغه بأن سهى .. قلقت عليه ، وتود أن تعرف سبب انقطاعه .. كما تود أن تزوره بنفسها وتسأل .. هل يمكن قضاء سهرة فى بيتك ؟! وعندما تغلب على دهشته ، وبين لعاطف صعوبة ذلك فى الشقة الصغيرة المزدحمة بعائلته ، أبلغه عاطف بأنها تعتذر عن اللقاء به .. أو بالشلة إلى حين الانتهاء من اعداد رسالتها ، وقد يستغرق ذلك ثلاثة أسابيع على الأقل ..

وبعدها علم جمال أن عاطف الذى يعمل معيدا بكلية التربية .. سيقدم لها بعض المراجع التى طلبتها .. وصار بينه وبين سهى مواعيد ولقاءات .. وتذكر جمال – بالصوت والصورة – اللقاء الأخير المحتدم بين عاطف وسهى ، عندما اشتعلت المناقشات السياسية بينهما ، يتدافعان شرقا وغربا ، وتفجرت المناقشة بمعتقدات كل من سهى وعاطف فضل .. وتبادلا الاتهامات سافرة ..

- أنت شيوعى وقح يا فضل ..

وقال لها عاطف بنفس الشدة :

- وأنت رأسمالية مخدوعة فى مظاهر الحضارة الغربية يا .. آنسة سهى .. ستستمعين قريبا إلى صوت ارتطامها الداوى .. فالحرب العالمية الأولى قامت من أجل الصراع بين نظم رأسمالية قديمة وجديدة ، والحرب العالمية الثانية قامت بين نظم رأسمالية جديدة وجديدة .. !

والحرب العالمية الثالثة .. ستكون بين تكتلات اقتصادية ضخمة ، أى بسبب الأسواق والمصالح الرأسمالية .. بينما لم تقم حرب عالمية واحدة بين - الدول الاشتراكية - حتى خلاف الصين والسوفييت .. لم يتحول إلى حرب ، بينما أى خلاف بين رأسمالى وآخر ، سريعا ما تنطلق فيه المدافع والصواريخ ... !

ورأى جمال .. نظرة الأعجاب .. التى جعلت عين سهى تتسع وهى تتأمل عاطف ، ويموج بها ذلك البريق الذى يعرفه ...!

وعندما حاول جمال أن ينضم الى تكتل عربى قومى ناصرى بالشلة له مؤيد واحد ، لا يقف طويلا أمام سهى وعاطف .. لم يسانده كمال .. واكتفى بأن يتلعثم ويسحق بين صدامين هائلين ..

لذا قرر جمال أن يشفى من مرضه .. !

وعندما كانت أمه تجلس على طرف السرير تطمئن على سلامته ،

قال لها دون تمهيد .. وفى ظنه أنه يجهز (صدمة) لسهى ، ابنة الذوات ..

– ثريا ابنة خالتى .. يا أمى .. يتيمه وحصلت على الدبلوم .. هل تحبينها .. وهل تقبل أن تعيش معنا هنا فى الشقة ؟ فهمت أمه ما يقصده ابنها .. فقالت :

– ثريا يتيمة الأب – الرجل الطيب مات – لكن أم ثريا لا تزال كما هى .. اتركنى أخطب لك .. (منال) جارتنا .. موظفة .. وعندها فرش البيت كامل .. يا دوب تشترى أوضة نوم ... و ...

ووافق جمال على منال .. التى لا تختلف كثيرا عن ثريا .. فكلتاهما متوسطة الجمال ، متوسطة المؤهل .. وتسعى إلى الإنجاب .. وخدمة الزوج ، وتتحمل ظروفه المالية ..

قالت له أمه :

– على بركة الله يا ابنى .. أمها كانت كلمتنى .. سارد عليها بالموافقة ..

وفى نفس المساء .. كان يبلغ الشلة فى المقهى .. بأن يستعدوا لحضور حفل خطوبته .. !

واعتقد معظمهم أنه يتحدث عن (سهى) المشغولة فى تحضير دراساتها .. ولكنه فاجأهم .. بأن خطيبته هى (منال) جارته .. موظفة .. وعندها فرش لبيت كامل .. ويا دوب ستشترى أوضة نوم ... و ..

وكان عاطف فضل يبتسم فـى سعادة .. على غير العادة ..!

هو الذى قام واحتضن جمال ، وقال له : ألف مبروك يا جمال ..

وفى أذنه وقبل أن يطلقه .. همس :

– كلام فى سرك يا جيمى .. أنا وسهى اتفقنا على الزواج .. وكما تعلم سهى تعشق المهزومين .. أمام الفقر ، أو القوة ... ! .

* * * * * *

الأزرق والوردى

لم يشك لحظة أن الذين صحبوه كانوا قوة مؤلفة من أربعة أشخاص أقوياء .. بينهم واحد مهندم - إلى حد ما - له صوت جهورى .. وقد لاحظ أنهم يطيعونه ويلتفتون إليه فى كل فعل يفعلونه ، مما جعله يعتقد أنه كبيرهم .. !

برغم ملابسهم المدنية ، كان قد ادرك من أول لحظة أنهم من الشرطة .. ولهم راتب من الداخلية ، وإن لم يتفحص أوراقهم ويطلع على بطاقاتهم ، فهم عادة لا يقدمون تلك البطاقات والمستندات التى تثبت شخصياتهم ، وإن قدموا وريقة الضبط والإحضار ، فهم يقدمونها تحت نظر (المتهم) للحظات قصار ، ثم يكتفون بإثبات شخصياتهم ، بما يصدر عنهم من خشونة فى الطبع ، وتغليظ فى الصوت ، ونهره فى شئ من القسوة ، إذا لزم الأمر .. !

وثمة خطأ فادح ، كثيرا ما يقع فيه أصحاب سوء الحظ ، ممن يقبض عليهم ، إذ أن ذهنهم فى تلك الحالة من المداهمة ، يكون مشتتا ومشوشا بدرجة لا تسمح لتعيس الحظ بأن يرتب أفكاره .. ولو للحظة واحدة ، يتأكد فيها بأن من يسوقونه فى عجالة ، هم من

الشرطة ، ولديهم الوثيقة الموقعة من النائب العام ، بالقبض والإحضار ، يمكنه أن يتثبت من سلامة الإجراءات ، والتى كثيرا ما يكسب المحامون الماهرون قضاياهم بسبب الطعن فى سلامة هذه الإجراءات القانونية فى الضبط والإحضار ، ولكن ما كان يطمئنه ، أن حركاتهم كانت بطيئة وبها شئ من السأم ، وفى عيونهم بلادة من لا يستمتعون بأعمالهم ، اثنان منهم على الأقل يظهر هذا جليا على حركاتهما وهيئتهما ، مع أنهم جميعا لهم أجسام وافية وكفوف قوية .. !

ويصرف النظر عن شكل الأحذية .. التى كانت فى الماضى إحدى الوسائل التى يتثبت بها الذين ليس لديهم فرصة للحصول على المستندات الدالة على الشخصية ، بالنظر إلى الحذاء الميرى ، فالسادة من الشرطة السرية .. مهما لبسوا من ملابس مدنية .. كانوا لا يبدلون الحذاء الأسود المتجهم الذى لا يستفيد كثيرا من (حُق اللمعة) والورنيش .. !

إذ لم تعد الأحذية الأميرية فى أيامنا هذه ، موحدة ، وفيما يبدو ، يتم صرف بدل نقدى ، وكل شرطى سرى يشترى الملابس والأحذية حسب ما يتطلبه مزاجه وتتيح له ظروفه .. أما الحذاء الأميرى الدبابة ، فقد صار ، موضة للشباب من الرجال والسيدات ، كأشياء كثيرة تعود إلينا من أيام زمان ، لكن الانبعاج فى جنوبهم ، كان واضحا بصورة لا تجعله يخطئ فى التخمين بأن الأربعة مسلحون بالمسدسات ، تحت نهايات القمصان المنسدلة على البنطلونات ..

وأحدهم على الأقل يضع المسدس فى الحزام عند الظهر ..

لذلك ، فقد سلم بأنه « وقع » ، وتم القبض عليه ، وأنه .. وهذا من سوء حظه .. مساق معهم لركوب السيارة الملاكى إلى حيث شاءوا ، وفى هذه الحالة ، والشخص على أى مذهب أو دين كان – يسلم نفسه للأقدار – تفعل فيه أفاعليها المقدرة .. وقد يتذكر بأن قانون الطوارئ يتجدد من سنة إلى أخرى ، والسبب الذى صدر من أجله ، حل مكانه السلام والوئام .. ولكن حتى إذا ما كان هذا القانون قد تم شطبه فى احتفال خاص يزين جبين الديمقراطية ، فإن مسألة إلقاء القبض عليه ، كانت ستتم بصورة ما .. إذ أن لكل فعل رد فعل ∴ إلى آخر هذا القانون العلمى ...؟

وما عليه الآن ، إلا أن يستعيد الشريط ، ويرى فى أى خطوة حدث الخطأ .. وز[illegible]دمه من فوق الخط المرسوم .. الخط الوهمى المرسوم .. والذى يسير عليه ، ومتى تلكأ هنا أو هناك ومتى تلفت يمنة أو يسرة ..

وهو – بقدر ما يستطيع – فى السنوات الأخيرة على الأقل .. صار لا يحيد عن الخط المرسوم ، وهو خط يستطيع أن يمشى عليه راكباً دراجة أو سيارة .. أو حتى باص .. خط عريض لكنه لا يتطرف نحو اليسار أو اليمين ، خط فى المنتصف ، وقد أدرك مبكراً ، أن المشى فى المنتصف تماما ، ينأى به عن مغامرات اليسار ، وصفاقة اليمين ، وهو ما لم يستوعبه كثير من أصدقائه ومعارفه « فراحوا فى

وحتى يفرغ طاقته الزائدة ، إذ أن خط المنتصف ، يجعل من الشخص فى ذاته محور الكون ، ومن تفاهات الحياة يصنع قضاياه ، الغرض منها التسلية ومواكبة صعود ونزول الدول الكبرى ، مع الإهتمام بماتش كرة ، وكأنه ، القادسية أو حطين .. أو عين جالوت .. أو حتى عين الصيرة ... !

ومع إدراكه لذلك .. فقد صب اهتمامه فى القراءات الأدبية .. وقد اكتشف عالما من اللذة الذهبية ، كان خافيا عليه ، وهو الذى كان مهموما بمعاناة الناس ، الذين يدبون على أرض الواقع ، وقد حول اهتمامه إلى الناس الذين يدبون على أرض الخيال .. فصنع عالما خاصا به ، وأسلوبا .. وابطالا ينوبون عنه فى المقال والحركة الواقعية « ويا دار ما دخلك شر » .

وبذكاء يعرفه السياسيون القدامى ، ابتعد عن الأسلوب الواقعى التنويرى وتفريعاته التحريضية ، فهم يضمون الذين يتبعون هذا الاسلوب ، إذا دلهمت الأحداث إلى أى حزب جانح ، ولا يعنيهم الاسم الحركى ، أو دفع التبرعات ، أو تقديم القرائن التى تثبت أنه خالف المواد من ٩٨ إلى ١٠٦ بالإضافة إلى القانون (٢) لتلاحم الوحدة الوطنية .. !

ومهما جعل موضوعاته تغوص فى الأساطير ، وكان ياما كان ،

أو عمد – عن قصد – إلى إستخدام تيار الوعى والحداثة ، حتى تكون كتاباته لها عدة وجوه .. وغير مفهومة على الأقل ، عند من يترصدونه ، مستفيداً من هذا الشكل،وكذلك المضمون ، عندما يدفع بكل ما يجوس فى نفسه ويبعثره فى جملة من التهاويم والتخريجات ، ويكتب كل ما يخطر على باله ، وهو يقدم لوحته الأدبيةالسريالية – وقد نال شهرة سريعة – فاللوحة معقدة والمشاهد يستخرج منها القارئ ما يرغب ، كما أن موقفه أمام من يجهدون أنفسهم ويتابعونه سيصير أكثر غموضا وغارقا فى الهلاوس غير المنطقية ، وتفيد القارئ .. فى أن يشارك المؤلف فى التأليف .. ويشبع هوايته .. !

وكان السؤال الذى يحيره .. وهم يسوقونه بينهم ...

« لماذا يلقون القبض عليه .. والبلد .. فى قمة الديمقراطية ؟ »

هل توصلوا إلى جهاز .. يحدد ما يثار فى الضمائر ؟! .

وقف فى طابور ، أمام منضدة مستطيلة من الرخام الأبيض الإيطالى .. رأى المكان من أول نظرة يشبه المسمط الشعبى بأبخرته وروائح الطعام فيه .. اعتقد فى البداية ، أنه يقف ليحصل على وجبته الغذائية بواسطة صينية ذات تجاويف ، وانهم سيملئون تجاويف الصينيه المعدنية بصنوف الطعام .. لماذا تخيل أن احدهم سيضع له فى الصينية مغرفة من الأرز الأبيض المخلوط بالشعرية الصفراء .. وأخر سيضع له مغرفة من اللوبيا أم عين سوداء ، غارقة فى الصلصة

الحمراء مع قطعتين متوسطتين من اللحم الشمبرى ، أما العين الثالثة ، سيوضع له فيها بعض السلطات الخضراء وثمرة الفاكهة ، برتقالة بصرة وعندما يستدير ويبدأ فى الانصراف فأن إحدهم سيدفع إليه برغيف عيش بلدى .. إذ أنه يحب أن (يغمس) اللوبيا بالعيش البلدى ، وما يتبقى يخلطه بالأرز ... !!

لكن المفاجأة التى جعلته يضطرب ، قبل أن يحل الدور عليه ، بشخص يتقدمه ، رؤيته لذلك الشخص العملاق الذى يتعامل مع الطابور ، وهو من بُعد كان يبدو كطباخ ، إذ أنه يرتدى طاقية الطباخين البيضاء الطويلة الهائشة .. ولعله انشغل لحظات ، يسأل نفسه عن سر طاقية الطباخين البيضاء الطويلة الهائشة ، لماذا هي طويلة وهائشة ؟ وكل شئ تقريبا لابد وأن يكون له سبب أو معنى ، ولكن وقع مفاجأة ما رآه ، جعله يركز إنتباهه فيما يرى .

فى البداية لم يصدق ، ولكن كل شئ كان واضحا أمامه ، بما لا يدع مجالا للشك ..

الرجل الطويل العريض الذى يقف خلف الرخامة البيضاء الإيطالى يتعامل مع أفراد الطابور كأسطى قديم محترف ، إذا ما اقترب منه الشخص الذى عليه الدور ، يقوم بجذبه نحوه ، يتناول الشخص من خلف رأسه بيده ويدفعه بأن يضع الراس على (الأورمة) جذع مقطوع من خشب البلوط ، يستخدم عادة فى دكاكين الجزارين – وبالساطور اللامع الذى يبرق ، يصعد به إلى أعلى وينزل على

عنق الشخص الذى مال برأسه على الأورمة ،وما هى إلا أنة خافتة تصدر مع رعشة قد يسببها الخوف الذى يجعل الشخص يقاوم مقاومة خفيفة ، لكن وهذا هولبّ المفاجأة ، الشخص عندما تقطع رأسه ، ينتصب بجزعه ويقف فى الطابور ينتظر النتيجة .. جسد بدون رأس .. بينما المختص ، وهو فى الوقع أبرع من أى جزار محترف ، وقد يتمتع بمهارة الجراحين العظام ، يعمل فى مهارة فائقة فى الرأس الذى أمامه ، يقوم بضرب الرأس فيفصل الجزء العلوى عن الجزء السفلى الذى به جزء من الرقبة والزور ، يقسم الرأس كما تقسم البطيخة إلى نصفين .. ويأتى بمغرفة لها انبعاج خاص ، ويغرف عينه من إحدى التجاويف ، سائل أبيض له لزوجة ، ويضع العينه فى دورق يشبه دورق الخلاط ، ويضيف على العينة قليلا من سائل لزج أصفر ، عدد من النقاط المحسوبة.يفعل ذلك تحت مراقبة المختص ، الذى يجلس على ما يشبه المكتب خلفه .. وأمامه أوراق وسجلات وجهاز كمبيوتر ، والمختص هو الذى يتسلم ويفحص إذ يضع الدورق فوق جهاز الخلط ، ويدير الموتور لعدة ثوان .. ثم يقوم برفعه ، ويصب من الدورق إلى نصف الكأس الزجاجية الشفيفة ، ويضيف إليها سائلا أبيض ، وإذا بالمراقب يشرئب بعنقه ويحدق إلى اللون الذى صار إليه السائل ..

فإذا كان اللون يميل إلى الأزرق بدرجاته ، أو الأخضر بدرجاته تظهر سيمات الراحة على المختص ، وقد يتنهد المراقب فى ارتياح ويدون شيئا فى سجله ، وشيئا فى جهاز الكمبيوتر ..

وشـاهـد .. خلطة (مخ) الشـخـص الذى أمـامـه ، وشـاهـد كـيف أنقلبت تصـرفات (المختص) من العـصـبـية إلى حالة تنم عن الإرتياح العـمـيق .. وهـنا يلصق المخـتص جزئى الرأس ويضـعـهـمـا فى سلة من البلاستيك ، لونها أزرق .. ويناول السلة إلى صاحب الرأس المقطوع - والذى يحـتضن رأسه فى السلة- ويمضـى بهـا خلف أحد الرجـال ، إلى غرفة العمليات .. وقد يشاهد بعد قليل وهـو ينصرف من الباب الواقع على يمين (المعـمـل) سليـمـا مـعـافـى/كـامل الـرأس ، وربما لوح للمنتظرين فى الطابور ، مـبتسما ، ويـتمنى لهم جـمـيعـا أن يتمـسوا بالخـيـر ... ومع أن المسـألة ، تمت أمـامـه ، والـرجل الذى قطعت رأسه وقف ، مرتكزا على طرف الرخامة ، وعلى قدم ونصف ، بل إن إحدى قـدميه كانت تـهـتـز ، هـزات من يشـغل نفسـه بلـحن مـعين لـه إيقـاع ثابت .. وسـمع الذى خلفه يطمئن الذى بعده فى الطابور بأن المسـألة بسيطة ، طالما أن المواطن فى حالة ، ولا يهـتم بأى شئ حوله .. فاللون سـيكون - بأذن الله - أزرق .. وأزرق نيلة ، وكل واحـد يمكن أن يبـات الليلة فى حضن امرأته ..!

وكانت الطامـة الكبرى عندما دقت الأجـراس بشـدة ، ووقف المراقب خلف مكتبه وسـجلاته وجهازه ، واهتزت الطاقية الطويلة ذات الانتفاخ العلوى فـوق رأس المختص ، اهـتـزازات اضـطرابيـة نتـجت من تزايد الحـالة العـصـبية ، فـإن احدهـم ، بعد إجـراء المزج تحـول لون الخليط النهائى عنده إلى اللون الأحمر الطرابيشـى ..

والرجل الذى يقف خلفه ولا يكف عن تبـسيط المسـائل، لطم

على خديه وقال : يا ليلة كوبيا .. هذا ما كنت اخشاه ... أن يوجد بيننا واحد احمر ..

لقد تم كشف احدهم .. والأجراس لن تكف عن القرع .. والدنيا هنا ستنقلب .. لو كان اللون وردياً - ازرق على احمر - فى لون البنفسج - لأمكن للمختص ان يتصرف ، بأن يضع له لوناً مساعداً فى حجرة العمليات يحيله إلى اللون الأزرق ، ولكن ان يكون اللون احمر ، وطرابيشياً ، فهذه مصيبة .. قد نتعطل بسببها هنا لعدة أيام .. لكن بعد قليل تمت السيطرة على حالة الإنزعاج ..

وعندما ، شرع المختص يتعامل معه ، تجرأ وسأله قبل أن يضع رأسه على الأورمة :

- ماذا سيفعلون مع صاحب اللون الأحمر الطرابيشى يا أخ ..؟!

نظر إليه المختص بإرتياب ، بينما يستعد بالساطور لفصل رأسه عن رقبته .. وقبل أن يجذبه .. قال له :

- ما الذى يخيفك .. سيكون سائلك أزرق - باذن الله - أزرق .. انا أعرفك.الست انت هذا الأديب الحداثى. يجعل الكون يدور .. حول ذاته .. بالكثير سيكون الخليط .. تركواز .. عموما هو مجرد اختبار سريع ، والليلة يمكنك ان تعود إلى بيتك ، تضاجع امرأتك ، وتأكل الهامبورجر ...!

وامتدت يد المختص ، فمال معه واضعا رأسه على الأورمه فى

انتظار فصل رأسه ، مع شعور بعدم الإرتياح ..

أن يغلب على مزيجه – اللون الوردى ...

* * * * * *

عمل صحفيا بجريدة نصف مشهورة .. كان يسافر إلى المناطق الملتهبة خارج الحدود ، ويرسل بالتحقيقات الصحفية واللقاءات مع أطراف الصراع .. وكانت الجريدة تنشر المقتطفات من تحقيقاته ولقاءاته تحت اسم « رئيس التحرير – الذى هو رئيس مجلس الإدارة .. والذى هو صاحب المؤسسة .. » والذى كان يتدخل بالحذف والإضافة ، حتى يتم « تشويه » الأعمال .. فلا تنسب له مطلقا .. !

والنوم فى العراء .. وفى المخيمات .. أدى إلى إصابته بنزلات البرد المركزة .. التى تحولت إلى ضيق فى التنفس ، وازمات ربو متوالية ، فعاد إلى – وطنه – ودخل المستشفى فى القاهرة لعدة اسابيع ، ثم فضل أن يأتى إلى شقته بالاسكندرية ليبقى فيها بجانب شقيقته المتزوجة ولديها خمسة أولاد ، ولا تجد وقتا لرعايته ، مجرد إحساسه بأنه قريب منها ، كان يرضيه ، ولا يشعره بالوحدة التامة ..

ولما طال مرضه ، سريعا ما وجدت الصحيفة بعض الأسباب التى تنهى بها عقده ، ولا تلتزم بصرف راتبه الشهرى ، خاصة عندما علم رئيس التحرير ، بأن الحركة قد تثير عند المريض ازمة الربو وتتقطع أنفاسه ، كما أنه كان قد ضاق بما أشيع فى المؤسسة ، بأن رئيس

التحرير لن ينشر مقالاته إلا بشفاء قرينه « محسن المحلاوى » فقام الرجل على الفور بالتعاقد مع عدد من الشباب - المتعطل - بنفس أجر « محسن المحلاوى » وتوالت كتاباته فى الصحيفة ، وفى غيرها من الصحف التى تصدر فى المنطقة العربية ، وتدفع بالدولار ، أضعاف ما يدفعه للشباب .

وبذلك ، صار "محسن المحلاوى" بعد خمسة عشر عاما من العمل فى الصحافة متعطلا .

فشغل نفسه فى تأليف كتاب فى (عيوب صناعة الزجاج ، وكيف يمكنك إقامة فرن فى بيتك لصهر الزجاج وتشكيله بل وتلوينه) وفى نيته بعد أن يفرغ من كتابه هذا يبدأ فى كتابه سلسلة مقالات - حول - (كيف يمكنك أن تصبح مليارديرا فى مصر وليس فى أمريكا ... !) .

ومحسن المحلاوى برغم مرضه وإرهاقه ووحدته ، كان من الذكاء كى يعرف من أين تؤكل الكتف « فى هذه المرحلة التى تهيمن عليها - العولمة - على الأقل .. » .

وقدم كتابه فى صناعة الزجاج - لأكثر من ناشر - وجعلهم يتصلون ببعضهم تليفونيا ، كل منهم يطلب من الآخر أن يتنازل عن الكتاب ، حيث لديه موافقة كتابية ، وحتى يفك الإشتباك بين الناشرين ، وعد كل ناشر بكتاب جديد .. وبالمصادفة .. اتفق

الناشرون جميعا على موضوع واحد ، أن يكتب عن (زمن الانغلاق الذى أعقبه زمن الانفتاح ، وبالتحديد ، حول الجرائم الجنسية التى كان دافعها عدم وجود غطاء للراس - لا للرجال أو النساء -) وفى النهاية فاز الناشر الذى كان اكثر سخاءً .. واكثر غباءً ... وحصل محسن المحلاوى على العربون .. !

وقد لمس هذا الناشر « الثرى » فى الكاتب وهنا صحيا ،فقام بتقديم وصفة دواء فعال من خلاصة النبات ، واقسم الناشر أنه يقدم له خلاصة تجربة عمليةً وعليه أن يخفيها عن أعدائه .

وارشده إلى أحد « صناع الفحم البلدى ، واكد له بأنه سيجد عنده الدواء الناجع للنزلات والربو وضيق التنفس ، حتى يتفرغ للتأليف ..

وقدم له (خريطة) على ورقة فى حجم كف اليد ، للوصول إلى عنوان صاحب الدواء السحرى .. وطلب منه أن يحفظها بعيدا ويخفيها فى مكان أمين حتى لا تقع فى يد أحد .. قد يقوم .. بتسجيل (فكرة) الدواء لنفسه .. فإنه يحاول إقناع صانع الفحم البلدى ، بأن يشتركا معا فى تسجيل الدواء ، ولعله يجنى ثروة ، كما فعلت (بنت أصلان) عندما قدمت دواءً يجعل العجوز صبية ، وبرغم فشله ، فقد جمعت ثروة .

وهذه التوصيات ، أضافت أهمية عند المؤلف بأن يبادر ويسير على خطوط الخريطة ، حتى يتعافى ، ويعمل بكامل طاقته فى كتاب جرائم الجنس فى زمن الانغلاق ، بسبب عدم نسج الطواقى الشبيكة.. !

طبقا للخطة والخريطة .. كان على محسن المحلاوى أن ينتظر على مقهى (اللوتس) والذهاب إليها كان سهلا ، وقد نظر فى الخريطة التى فى حجم الكف مرة واحدة .. وأمكنه أن يركب (المشروع) من شارع بورسعيد بالابراهيمية ، ويصل إلى قلب سوق باكوس .. وينزل أمام مقهى (البطل) المواجهة لحلقة السمك ، ومزلقان الترام ، المؤدى إلى مدرسة الرمل الثانوية بنين ، وإذاعة الاسكندرية ، وطبقا للخريطة فهو سيتجه جنوبا حتى مزلقان قطار محطة سكة حديد - السوق - التى تتوسط الظاهرية وغبريال .. ويجلس فى المقهى على أحد المقاعد الخارجية التى تواجه باعة الفاكهة الجائلين والذين يتراصون فى حلق المزلقان .. فيعيقون سيولة المرور .. مما يكون أكثر فاعلية من المطبات الصناعية التى يقوم بالمساهمة فى إقامتها الميكانيكية والسمكرية المختصون بإصلاح السيارات ، وكان عليه أن يراقب من بين هذا الزحام الشديد أمام المقهى .. حضور ، تروسيكل موزع الفحم النباتى .. وعندما يحضر موزع الفحم ، يقوم ويتبع التروسيكل المحمل بأجولة الفحم البلدى ، لزوم راكيات النار فى المقاهى .. والتى يمونون منها ، حجارة المعسل ، وحجارة الشيشات التمباك .. ولم يحذره أحد من ملقف الهواء ، وكان يسعل ويعطس ويشرب كوب عصير الليمون ويعقبه بكوب الشاى الساخن ، وحباية النوفالجين ، حتى حضر مورد الفحم وقام وتبعه خلسة ، رآه يدفع أمامه التروسيكل وينتقل من مقهى إلى مقهى

، لكن الرجل المصوص الملطخ بآثار الفحم على سواعده ووجهه وملابسه ، توقف فجأة وتقدم حتى التصق بصدره وهو يسأله في غضب .. (إن كان يلزم خدمة) ، وإلا فلماذا يتبعه كظله منذ سلم جوال الفحم إلى مقهى (اللوتس) وقبل أن يجيب .. كان الرجل المصوص .. يسأله مرة أخرى في غضب .: إن كان من البوليس ومتنكراً في ملابس المخبرين السريين ؟ فهو لا يوزع على المقاهي إلا الفحم النباتي ...

وعندما هدأ موزع الفحم المصوص ، وكان الغضب قد عصف به .. قال له الكاتب المريض : انظر إلى منظرى .. إذا كنت مخبرا سريا ، كان الضابط المسئول سيعفيني من المتابعة ، وأنا أعاني من أزمات الربو ، والإقامة الدائمة لنزلات البرد في صدرى ، وأنفى يحتقن ، مع زغللة في العينين .. ثم سأله : لماذا تخاف إذا ما كنت تقوم بتوزيع أجولة الفحم النباتي – ليس غير – على المقاهي .. ؟! .

ولكن الرجل المصوص الملطخ بتراب الفحم ، استمر يتعامل معه في ريبة وتوجس خيفة ، حتى مال عليه وصرح له ، بأنه جاء من طرف أحد العملاء الكبار لمقابلة معلمه .. صاحب الدواء الناجع ، الذي يقضي على نزلات البرد في غمضة عين.وتباسط مع موزع أجولة الفحم فأخذ يحدثه عن (عصر المعلوماتية) الذي يحتكر المعلومات والبرامج الكومبيوترية ، ولم يفلح للآن في أختراع دواء لنزلات البرد ، وبعدها اقتنع الرجل المصوص الملطخ بالسواد ، وسمح له أن

يمضى معه ، على أن يفرغ من توزيع اجولة الفحم المتبقية ، ويصحبه أخر الليل إلى الحاج قبارى وتمنى له سرعة الشفاء بإذن الله ، وعندما حاول أن يحصل على مزيد من المعلومات عن الحاج قبارى صاحب ، الدواء المعافى ، كان « الموزع » لا يصده ، ولكن يزوغ منه إلى حكايات اخرى لا تفيده كثيرا فيما يقصده ..

.. .. ..

ولم يكن "محسن الحلاوى" الصحفى السابق ، يعلم أن عمل توزيع أجولة وطلبات المقاهى للفحم النباتى عمل تكتنفه المشاق والصعوبات .. وقد رأى بنفسه ، كيف تنشب المشاجرات بين أصحاب المقاهى وموزعى الفحم البلدى ، عندما يبدأ العتاب وسريعا ما يتحول إلى مشاجرة ، تعلو فيها الأصوات ، وقد تتشابك الأيدى .. وبعض أصحاب المقاهى .. اعتقدوا أن الكاتب الصحفى زميل الموزع ، فكانوا يوجهون إليه ، شتائمهم وسبابهم تشمله وتشمل – صانع الفحم البلدى – إذ أن الفحم البلدى إذا ما كان لا يزال مبلولا ومرطبا – لا يشتعل سريعا – كما أنه إذا اشتعل ، تحت مصدر تيار هواء موجه إلى راكية النار .. يحدث فرقعات بداخل الراكية ، قد تنثر نصف الفحم ، خارج الراكية ، ونصف زبائن المقهى يضعون ذيلهم فى أسنانهم ويشمعون الفتلة .. وفهم الكاتب بأن يشمعون الفتلة ، تعنى انهم يسارعون بالجرى من المقهى إلى الشارع بما لديهم من أثمان طلبات شربوها وهم يلعبون الدمنو والطاولة ، كما أن فرقعات الفحم فوق

كراسى المعسل من أول شدة نفس ، تحدث حالات إغماء ، وتنتشرفى المقهى حالات الإزعاج ، كما تكشف للزبائن لحسة المعسل التى توضع فى قعر الحجر عندما يتطاير الفحم نتيجة للانفجار أو يرفع الزبون الفحم بالماشة من فوق (الحجر) ويرى بنفسه لحسة المعسل ، ويكون على صاحب المقهى أن يتحمل كرسى معسل جديد ، يصرفه مجانا ، للزبون ، حتى يشترى غضبه ..!

لكن موزع الفحم يحاول أن يجذب (الكاتب) نحوه عندما يراه قد وقف ضده وضد (الحاج قبارى) صانع الفحم البلدى ، يبادر باتهام أصحاب المقاهى ، بأنهم يغالطون فى حساب توريد الفحم للمقهى ، ويخرج (النوته) التى صارت سوداء - غلافاً وصفحات - بسبب آثار الفحم ، ويشير إلى إحدى الصفحات ، وبالتحديد يضع أصبعه على سطر معين وهو يقول .. « صاحب المقهى الثائر الغاضب عليه أربعة أجولة ، ويريد أن يدفع ثمن جوالين فقط .. انظر ، إنه يتهمنا بأن الفحم مرطب ، ويثير ذعر الزبائن .. وكأننا نضع لزبائن المقهى ، القنابل بداخل أجولة الفحم النباتى .. » ، ولكن هذه النزاعات التى تحدث كل يوم تثور وتنعقد ، ثم تنفك ويهدأ الجميع .. عند الوصول إلى حل وسط .. وفى نهاية التوزيعة ، يصحبه إلى شارع العقصة من ناحية شارع مصطفى كامل ، ويجعله يجلس على المقهى المجاور لدكان عصير القصب ، الذى كان يقدم البوظه السودانى ، ثم صار يحتفظ بثلاجة كبيرة يقدم منها زجاجات البيرة المثلجة فى آخر الليل ...

- أجلس هنا يا أستاذ ، خمس دقائق ويأتى إليك الحاج قبارى .. سأخطره بأن يأتى معه بالدواء .. تتمسى بالخير ... » .

.. .. ..

جلس الكاتب عند باب المقهى - فى شارع العقصة - يعطس ويسعل ، ويشرب الشاى بالليمون .. مضى قرن من الزمان ، حتى حضر (الحاج قبارى) فى جلبابه الأبيض الترلين والطاقية الشبيكة الصغيرة تلتصق بقمة رأسه .. طاقية صغيرة تكاد تشبه طاقية السلفيين اليهود ، ويحتضن لفافة صغيرة يرقدها على ذراعه الأيمن ويضمها إلى صدره ، من المؤكد أن « الموزع » أبلغه بأن الزبون يعانى من نزلات البرد المزمنة ، فقد اتجه إليه مباشرة ، وجلس على المقعد المواجه له ووضع اللفافة ، قائمة على سطح الترابيزة ، بدا أن الزجاجة متوسطة الحجم نصف لتر، ابتسم الصحفى مرحبا بالحاج قبارى ، وفى هزات رأسه سؤال ... أنت المعلم صاحب الدواء الشافى المعافى .؟ ؟ ، وفى اطراقة الحاج كان يرد أنا بالفعل الشخص الذى تقصده ؟ وبصوت خشن قال الحاج وهو يميل بصدره على الترابيزة ... « « صاحبك كان يعانى من زكام صيفى دائم ، وزكام الصيف حاد كالسيف ، وأمكن لنا بإذن الله وتوفيقه أن يجعلنا الله سببا فى الشفاء العاجل لكثير من الأصدقاء والمعارف .. »

كان - صانع الفحم البلدى - أبيض البشرة .. وشعره أبيض .. وملابسه بيضاء ، والورقة التى لف بها الزجاجة ، كانت بيضاء .. قام

بفض الغلاف عن الزجاجة ، فكانت ذات لون أخضر ، وما بداخلها من سائل كان أحمر ، وكان يبدو وكأنه سائل أسود قبل أن يصب في الزجاجة ..

وربما كانت المساحة البيضاء واختلاف لون الزجاجة من أسباب تركيز انتباه (الصحفى) على الزجاجة والسائل .. إذ قال فى انبهار وصدره يعلو وينخفض :

– لابد وإنك يا صانع الفحم قد أحضرت الإكسير ؟

قال صانع الفحم ، وهو يدلق ما بكوب الماء فى كوب الشاى الفارغ ويبدأ فى صب السائل الأحمر فى الكوب مكانه :

– نعم .. نعم .. هو الإكسير .. لقد دلك علينا مجرب .. والتجربة خير برهان يا سيد ... !

كان وجه صانع الفحم جاد الملامح أو جامد الملامح .. ولا يبتسم وهو يقدم له الكوب الذى ملأ نصفه بالسائل الأحمر ..

– أرجو أن لا تكون قد اتيت إلينا بسيارة خاصة .. ؟

ابلغه بأنه لا يملك سيارة ، فامتعض صانع الفحم النباتى ، ومع ذلك قام بدفع التحذيرات جملة ، أن لا تسير فى الشارع بعد تناول الدواء ، وأن يكون الدواء بجانب السرير حتى تغمض عينيك وتنام ، إذا ما تطلب الأمر ذلك .. وأن لا تتعامل ماليا مع أحد فى الأربع وعشرين ساعة التى تعقب تناول الدواء .

واشار له على التعليمات مكتوبة فى منتصف الزجاجة ، استوعب الصحفى جملة النصائح ، أو هكذا جعل صانع الفحم البلدى يعتقد ذلك ، بينما كان بطريقة آليه يتناول منه الكوب ويدلقه فى جوفه ، ثم يمتص ريقه الذى انقبض فى فمه ثم انبسط لا سعا زوره ، مع إحساس بأنه يدلق فى جوفه ماء النار ، وما هى إلا لحظات ، وفقد راسه .. ولم يعد يشعر باحتقان الجيوب الأنفيه ، أو أن شيئا يسيل فى مجرى أنفه ، أو أن زوره جاف وأنفاسه قصيره متلاحقة .. وبالكاد سمع صانع الفحم يطلب المائة جنيه .. فدس يده فى جيبه وأخرج ما به من نقود .. ناولها له كلها ، اقتنص منها صانع الفحم المائة جنيه التى يطلبها ، وأعاد إليه باقى نقوده ، وقام صانع الفحم تاركا الزجاجة على الترابيزة ، وقد أشار له على الورقة الملصقة بمنتصفها وبها كافة التعليمات ، وكان على الكاتب أن يبقى قليلا حتى يشعر بأن راسه قد عاد إليه ، ثم يقوم مترنحا ليغادر المقهى ، ويترك شارع العقصة ليتسلمه شارع مصطفى كامل ، الذى يضج بحركة السيارات ، أشار إلى تاكسى .. فتوقف ، ألقى بجسمه على المقعد الخلفى وهو يقول :

– الابراهيمية .. شارع بورسعيد .. يا اسطى ..

ولكن الاسطى كان ينظر إليه باستنكار .. فقد كان يحتضن الزجاجة الملفوفة فى الورقة البيضاء ويوسدها ذراعه .. وعندما أدرك نظرات السائق المستنكره .. قال له بلسان ثقيل : هذا اكسير يا أسطى .. للقضاء على نزلات البرد .. سيكون فتحا جديداً فى عالم

الطب ... باسم « محسنكو الحلاوى » .. وستفخر أمام أصحابك إنك نقلت مخترع الإكسير بسيارتك فى توصيله إلى منزله ..

والسائق ظل وجهه مقلوب الملامح .. حتى حصل على أجرته

– قبضة من الجنيهات وانصافها ..

ولعل السائق انبسطت أساريره وهو ينطلق بالسيارة .. مبتعداً ، وقد بدأ يصدق بالفعل بأنه كان يقوم بتوصيل « أحد العباقرة » وإلا ما كان قد منحه حصيلة يوم كامل من العمل فى شوارع المدينة .

.. .. ..

وصل الكاتب بيته وسارع وشرب نصف كوب آخر من السائل الأحمر .. لسع زوره ، ولسع أنفه .. فعطس سلسلة من العطسات التى كان يرتج لها جسمه .. ثم أفاق ليجد أن رأسه فى مكانه .. وأنه يتأمل هذا الإكسير المدهش ، قام واحضر الورق والقلم ، وأحضر من الثلاجة خيارا وطماطم وقطعة من الجبن التركى ، وباقى شرائح البطاطس المقلية .. وكسرات من الخبز الجاف المحمص .. وتجرع ثلاثة كئوس من الزجاجة طبقا للخطوات المسجلة على منتصفها ..

ما هى إلا لحظات حتى تعامل بالقلم وانكفأ على الورق .. وأخذ يكتب .. عن عصر الإنغلاق .. ويذكر عشرات الجرائم الجنسية التى كانت تحدث بسبب تقصير ذيول فساتين النساء ، وعدم جمع

شعورهن المرسلة فى الطواقى ، تحت الأغطية الثقيلة وذكر ان الرجال اهملوا لبس الجلاليب البيضاء التبوانى والطواقى الشبيكة الباكستانى ؟! وعندما فرغ من الكتابه .. كان قد قضى على ما فى الزجاجة من اكسير ، ولم تبق به (العينة) التى فكر أن يسارع ويقدمها لمعهد البحوث ، حتى يمكن تسجيل إختراع الأكسير باسمه .. وبذلك يسبق صانع الفحم النباتى و « الناشر » الذى يفكر فى سرقة هذا الأختراع !

.. .. ..

وإذا تسلم الناشر منه الكتاب ووقع له على العقد ابتسم دون أن يجيب على طوفان أسئلته .. حول الأكسير وصانع الفحم النباتى ..

فاضطر أن .. يذهب مرة أخرى إلى مقهى اللوتس بالكوم ينتظر الرجل المصوص الملطخ بالسواد ، وهو يوزع أجولة الفحم على المقاهى .. ويشاركه فى تحمل مشاجرات أصحاب المقاهى ، وهم يعترضون على الفحم المبلول الذى يفرقع إذا اشتعل .. وفى ظنه انه أمسك ببداية الخيط الذى سيؤدى إلى أن يحصل على تفاصيل التركيبة النباتية ... *المدهشة* ..!

* * * * * *

لملم أجزاءه المبعثرة من عاد وثمود .. قبل المغيب ، وعلى شعاع زبالة من ضوء واهن ، أقام كيانه الممزق متساندا على عدد لا يحصى من الخرافات التى تحثه على أن يتعصب لنفسه .. ثم لقومه ..

هو وحده الذى كان يعرف نقاط الضعف والوهن فى تلك الاساطير .. نقاط الضعف والوهن فى الكيان المتهالك ..

وصار من يراه فى عباءته الفضفاضة يخشاه ..

وصار لا ينقل الخطو إلا بحساب .. حتى لا يتهاوى مفككا بداخل العباءة المهيبة .. !

ولأن رجولته وطاقته لا يسعفانه بالقدر الكافى .. فقد لقم ثديها فى فمه ، وجعلها تجأر من شدة ألم النشوة ..

مع ألم النشوة الفياض بالأحاسيس الانسانية ، كان عمله الأعظم ، اجتاحه زهو الفارس المغوار ، إذ واصل الضغط على مصدر الألم .. ينتشى بتأوهاتها ، وينهش الجسد ، وكأنها المرة الأخيرة لعشيقة تغادر البلاد .. !

ولما لم ينتقل إلى الفعل الإيجابى دفعته المرأة بقسوة النمرة المحبطة .. وقالت له فى جرأة الجريح :

– يعوزك الاستماع إلى حكايات من انجبوا اطفالا لهم .. فلقة القمر ، تعوزك حكايات من يمتطون الخيول الجامحة .. ويطلقون السهام ويصيبون الهدف وهم يسابقون الريح .. ويعرفون الطريق إلى النصر .. ! .

وفوجئ بها تنفض عن بدنها العارى دور – دليلة – العاشقة للقوة الغاشمة ..

إذ أيقنت أن قوته – ولو لفترة محدودة – تركزت فى فمه ، يلقم الثدى ويطلق الكلمات والأشعار المجنحة .

وإن وأدت ذلك الاتصال .. الاتصال الجسدى المتألق .. فلم يستطع الوقوف والابتعاد عن أقدامها ... !

كان يخشى المواجهة ، بأن تصيبه بهزيمة نهائية ، وقد حصر هزائمة وانتصاراته فى ذلك (العضو) الذى لا يمكنه اخضاعه لإرادته كاملا ، وعلق أمله على غزواته الوحشية من فوق النهدين ، كان يخشى هزيمته مرة أخرى ..

ولكنها لم تكن تظهر له النفور ، كانت لا تزال تدنيه وتعبث بشعر رأسه – تمسده – كما الأم فى بداية الطفولة .. وتطلق صقورها التى جمعتها فى عصر الصقور .. وهو يطلق خلف صقورها النسر الجريح الذى احتفظ به من عصر النسور .. نسر له أجنحة قوية ، يلصق ريش أجنحته بالشمع .. ويرجو أن لا يحلق فى السماء فى عز الظهر .. حتى لا يسقط من حالق ..

.. وباءت المحاولات غير الجادة بالفشل الذريع .. وأوحى التراجع الذليل .. لدليلة ، بأن تلعب دورا جديدا .. هى التى نجت بروحها من حطام المعبد .. لماذا لا تلعب دور السيد المطاع .. ؟

والتاريخ يحكى بأن سيدة ، وضعت فى ذقنها لحية صناعية وحكمت .. وسيدة .. لعبت على المتناقضات .. وحكمت .. فلتلعب دليلة .. على ضعف انحصار قوته فى الأشداق .. !

وتصير هى – ببعض الزيف – شمشون الجبار ... !

.. .. ..

رمقته بنعومة النظرة الوحشية المصنوعة من حرير طبيعى ، فتخلص بدنه مما يكسوه .. صار عاريا ومكان رأسه .. تفاحة ضخمة .. وانبعثت بداخله ألف زهرة برية ، عديمة الرائحة وسريعا ما وضح له .. كم هو عجوز وكهل .. وكم من الدهور مرت .. منذ كان شاباً لخطواته وقع خاص .. لذا فقد آثر أن يلوذ بالحكمة ..

أن تكون كهلا وليس لك حكمة .. فهى المأساة ..

قالت وهى تتناسى إحباطه وتردده ، تشل قدرته على الحركة بعيداً :

– أتدرى يا حبيبى .. أن « كهل » هو من أسماء القمر .. ؟!

لم يحر جوابا أمام غزارة علمها الذى كان يستخف به ، وبنعومة أصحاب الرايات الحمر ، وبخبرات مكتسبة على طول التاريخ السرى

فى أروقة الكهوف ، حتى أروقة القصور ومنذ قُتل المغلوب على امره – هابيل – وأُهيل التراب ، عليه وصار اسم القاتل علما .. تبوأت سقف حجرته الباردة .. نجمة وحيدة ذات أسنان مدببة كخنجر مسلول ..

وأرسلت دنانيرها الذهبية والفضية على فراشه البارد ، فأوقفت تفكيره حتى يصعد إلى تلالها ويسترخى ، ضمته بقوة ونعومة أقدم مهنة فى التاريخ الإنسانى .. فهوى ، قذفت به رغبته العارمة إلى هاوية .. قدحته فاشتعل شررا .. وتبعثرت شراراته فى اتجاهات مختلفة .. فلم تحرق .. أو تصنع نارا .. !

لمرة ثانية قال فى خجل المراهقين :

– الأوراق خضراء .. كيف تشتعل ؟

المرأة التى تتلوى ، نثرت على فراشه عبيرها المفعم برائحة النقود القديمة ، وأخذت تحثه على رد الفعل ، وهى تعلم علم اليقين ، أنه قد سقط ، منذ زمن طويل ، فى المسافة الرخوة بين الحضارة والبداوة .. منزلقا على بقعة من الزيت لا يشتعل نارا إلا فى قومه ... !

.....

قامت عارية ، مهرة فى صدر الشباب ، صنعت له فنجانا من القهوة المرة .. لتثبت له أصالة المحتد.. وحثته أن يرشف من القهوة .. حتى تفتح له خوان الخمور .

رشف القهوة المرة .. فقبلته بعد كل رشفة قبلتين .. فاستحال المرُ في فمه عسلا مصفى ، وتعذر عليه ابتلاع العسل شديد الحلاوة ، ففي قمة الصعود .. تتلاقى أول مراحل الهبوط ..

وكان" أمامهْ لم يزل يعتقد أن الدنيا بسيطة .. ومسطحة .. والسماء مرفوعة على عمد حقيقة .. ولم يعترف بعد ، والدنيا على أبواب القرن الواحد والعشرين،أن الدنيا دائرية .. بيضاوية في حقيقتها ..

وأنه إذا اتجه شرقا ، وتمادى ، سيصل إلى الغرب ..

وأن دليلة قد كشفت عجزه الحقيقي ، ولم تصده ، بل صنعت له طعامه المفضل وجعلته يأكل بأصابعه الثريد واللحم ... لتكتسب في بيته حقوق الزوجة الشرعية ... !

.....

.. وفي أوقات ، فُرض عليه أن يعيشها ، حصرت المسألة بين مائدة الطعام وفراش النوم ، لا تترك له فسحة من الوقت ينظر في كتابه ، ويتبين شيئا من خلفه أو أمامه ، عمدت أن تقابل روحه في بداية الطريق .. تصيدها بشبكة صيد الفراشات .. !

ولكنه ، مصادفة ، نظر في كتابه .. ومصادفة ، شاهد مكان صفحته المنزوعة .. خاليا .

ولم تكن القبائل تعتني كثيرا بالتسلسل العلمي وتنظيم الأنساق .. فأمكن لها إقناعه بأن – قصته – قد تبدأ .. في أي نسق ، وأي مكان ، حتى يصير مثلها مشتت الوجدان ..

لكن شيئا غامضا ، كان يهمس فى اذنه ، إذا ما صفت نفسه

« انت من نسل اسماعيل .. اعظم صيادى البرية .. جدتك هاجر .. ضرة سارة .. التى لم تعبر النهر .. » .

وعاد يبحث عن صفحته المنزوعة .. والصوت الغامض يلاحقه :

« جدك أنس وحشة بقبيلتى جُرهمْ والعماليق .. » .

وثارت فى ذهنه عدة أسئلة :

– لماذا تفككت تلك القبائل .. ؟

وما أسباب اندثارها ؟

هل هو سبب من خارج نظام القبيلة ؟ أم من داخلها ؟

ولماذا بقيت قبائل .. ليس لها شأن .. ولم تحتضن بين أعطافها .. اعظم صيادى البرية .. ؟! .

.....

.. من فتحة واهنة بداخل أحشائه ، تسربت .. واستقرت فى جوفه .. ثم صعدت إلى رواقه الفارغ .. الذى يحمله على رقبته المدغومة ..

منذ ذلك التسرب ، انهار جدار رواقه الأمامى ، انكشف جانب من اسراره ، يصفر فيه الريح ..

وكلما تعرض جانبه للأنواء والأعاصير الغريبة .: يتمادى رواقه فى السقوط على صدره ..

وخاصة عندما انقسمت لغته إلى عشرات اللهجات التى يحاول – الخبثاء – الاستفادة منها فى صنع الأسوار والحدود ، ولم يتبق من كل اللهجات الغامضة .. إلا .. لهجتان .. يصير الاختلاف عميقا بينهما .. بين الراء والباء .. ولأن الأرامية والقحطانية والحميرّية والمعنية والسبئية .. قد اندثروا .. فإحدى اللهجتين ، تأتى من خلف الزمن ، مدججة بالسلاح ، ونفوذ الدول الكبرى ، تأمل فى إلحاق الهزيمة بلغة كتاب العرب ..

......

.. فى نفس المسافة بين مائدة الطعام والفراش لاحت له صفحته المنزوعة .. كاد أن يحصل عليها ويقرأها .. فيحدث التحول الأساسى لكن دليلة عادت فى التو ، لتهمس فى أذنه بذلك الهمس الذى يثير عاطفته الدنيوية ..

– أعددت لك ما تشتهيه نفسك .. صنوفاً عديدة لنشعر معا بلذتنا وسعادتنا ..

وكان لا يزال يبحث عن تلك الورقة المنزوعة ، بينما دليلة تنضو عنه ملابسه .. وتحتضنه .. وتنتهى به إلى الفراش ..

لعن الجوع وأكل .. لعن الجسد وذاب فيه .. وحتى تخلصه مما يبرق فى ذهنه .. همت به فى ضوء القمر .. فصار فضى اللون .. لم تطلقه إلا إذا أطلق قراراته النهائية :

– قرار أول لا رجعة فيه « أن ينادى الذكور باسمى وليس باسمك ».

– قرار ثان لا رجعة فيه « أن تبقى الثروة باسمى وليس باسمك ».

– قرار ثالث لا رجعة فيه « أن أصنع العدل الذى جاء فى صفحتى المنزوعة .. ! ! » .

وكانت دليلة .. تبتسم فى عبها ، وتبدى له موافقة شكلية ولسان حالها يقول : الذكور ، وأنت لا تنجب .. الثروة ، وأنت لا تملك .. العدل .. ، وصفحتك منزوعة لن تصل إليها ..

.....

فيما بعد .. جعلته يدرك أنها جابت الدنيا شرقا وغربا ، واقنعته – بدون طنطنة – أنها جمعت فى جعبتها الكثير من التذكارات .. التيجان القديمة ، والقلائد التى تزين صدور الأبطال ، والسيوف التى لا تصدأ ..

وجعلت من رغباتها غطاء لرغباته .. فتكشف له ، أنها أفسدت إحدى غدده ..

فإذا ما أراد أن يتعملق ليبث الرعب فى قلبها .. تقزم بصورة تبعث على السخرية .. !

وقد خلطت رحلاته .. جعلت رحلة الشتاء ، فى مكان رحلة الصيف .. وقد صار لها من أعوانه خدم مخلصون ، فأصابت قوافله بالفشل .. وتجارته بالبوار .. !

وفى زمن السقوط ، تأتى لحظة الوعى خاطفة ، مشحونة بالأسئلة المكثفة :

متى أقفز بعيدا عن دفء جسدها ؟

متى انطلق بعيدا عن شراهة شفتيها ؟

كيف .. أنسى لين صدرها .. بهجة تذكاراتها .. ؟

رائحة نقودها القديمة .. ؟!

متى أتغلب على نزفى .. ؟!

واعود إلى حكمتى ، والعدل المنزوع ، فى صفحتى الضائعة ..؟! .

* * * * * *

منذ أن تدحـرج الزمـن على تلال الدهر ، مـرت سنـوات طويلة..!

كان الخادم الأسمر الأنيق .. ضـاحك السـن ، فى ملابسه المتناسقة التى تنم عن ثراء وذوق سـيده ، يأتى إلى بيت الفـقـيه الزاهد ، ويقف أمـام البـاب المفـتـوح بكامل الاحـتـرام .. يصـفق ليـعلـن عن وجـوده ، ويلقى بالتـحية على المارة من جـيران الفقـيه الزاهد .. وإذا مـا خرج له الفـقيه ، خاطبه كسـيد مـبجل ، فى شئ من الإجـلال ، يسـبق اسمـه بكنيتـه ، ويكثـيـر مـن ألقـاب السـيـادة .. وهـو يقـدم له دعـوة (سـيـد القـصر) لحـضور الاحـتفـال الموسمى الـذى يجتـمع فيـه كبـار البلد ، وموسـروهـا وفنانوهـا ، وأرباب الكلام المضـئ .. !

وفى القصر يتحلقون حول سيد القصر ، كهلال معقوف السن.. عندما ينشد المنشدون ، ويغنى المغنون ، ويتبارى الشـعراء فى إلقاء ما جـادت به القرائح .. ويـشـربون مـاء الحلبة ، وماء النعـناع والقرفة .. ويدخنون الـنراجـيل ، ويتـسـامـرون قـبل تقـديم الطـعـام ، ويـعـده .. وتسود أجـواء من المرح ، عندما يتصيـد البارعون الفكاهات الهـائمة .. والقفـشـات ، فتنطـلق الضـحكات لتغسل القلوب من أدرانها .. تصـفو الأحـاديث ، وتحلق حمـامات بيضـاء ، ترفرف فـوق الرؤوس المتقاربة ..

عندها تتكاثف المعانى الجميلة فى سماء القصر .. الذى لا يشعر فيه أحد بالغربة .. !

وبهذا اللهو البرئ ، تصفو القلوب وتمتلئ بشذى الفن ، وعبير الشعر ، لتتساوى المقامات والقامات فى لهوها وجدها ، وتعشش طراوة وحلاوة هذه الأمسية ، إلى موعد .. الحفلة الأخرى .. يقطرون ذكرياتها ، ويستعيدون أحداثها وطرافتها فى أيام العمل والزرع والحصاد .. فتنتشى النفوس وتلين الأفئدة ..!

وقد تعلموا .. كيف تكون لرقصات القلوب مواقيت ، وللوقفات الجادة مواقيت ، وكيف تتم الاستفادة مما يستشعره القلب ليخفف عنت ما يطحنه العقل ..

وكان الفن الواعى .. فى ذلك الوقت ، يلعب الدور الذى خلق من أجله .. ! .

.....

لكن الأيام دارت على القصر وسيد القصر والذين كانوا يسكنون حول القصر .. ويشعرون أن القصر من تراثهم .. رحلوا .. الجميع رحلوا بكافة طرق الرحيل .

وصار سيد القصر الجديد ، يرسل الخفراء الخصوصيين فى زفة جاهلة لإظهار القوة ، واستعراض النفوذ ، مع إثارة الرعب .. فيهبط (البودى جارد) من عربته ، ويعلن فى مكبر الصوت بعلوها ، عن

موعد الحفل السنوى ، الذى لا يوجد حفل افضل منه ، وأعظم منه ، لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، ويعدد أصناف الأطعمة التى ستقدم وأثمانها ، ويعدد أصناف المشروبات المستوردة وأثمانها بالعملات الأجنبية ، ثم يعلن بأن هذا للمؤيدين فقط .. وليس للمعارضين .. " للجدعان وبس ".. أما المناوئون فيتوعدهم بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، ويشير إلى ان - سيده - لحمه مرّ علقم ، وانه صاحب نفوذ (وواصل) وله الأيادى البيض على البلدة وسكانها ، التى لم يكن بها ملاهى ، فصارت تنافس - ديزنى لاند - ولم يكن فيها كازينو .. فصارت فيها الكازينوهات الذى تجلب السائحين إلى البلدة .. السياح والعشاق ... عشاق المقامرة واللهو .

وأمام بيت الفقيه الزاهد .. يطرق الحارس بابه بقبضة مسدسه .. وعندما يفتح له الفقيه .. دون مقدمات .. يعلنه بأنه مدعو للحفل .. (ابسط يا عم لم يزل لك مكانك !) .

ويعلنه بأنه فى الحفل السابق اعتذرت بمرضك ، لكن فى هذه المرة لن يقبل لك اعتذار ... وخاصة وإنك اشعت بأن سيدنا لا يفتح بيته إلا للهو .. ها نحن قد أتينا إليك وسيدنا يريد منك اعادة ما كان زمان ...

والحارس يلقى بخطابه فى جهامة ، تتضمن التهديد المناسب للحال ، وإذا ما وجد باب بيت الفقيه مفتوحا دلف إلى الداخل ، لعله يضبط اجتماعا للفقهاء بالصدفة ، ويجلس على سرير الفقيه ،

وعيناه ترقبان ما هو ثمين وله قيمة عند الفقيه الزاهد ، فلا يعثر إلا على الكتب مرصوصة تملأ الأركان.. ولا يتورع أن يطلب من الفقيه ، حق الطريق ، وما تكبده فى توصيل الدعوة له ..

يقدم له الفقيه جنيها من جنيهات قليلة يملكها ، وهو يقول « كان سيد القصر السابق يدعونا ، فنشعر بأننا فى الطريق إلى بيتنا .. لكن القصر الآن صار فوق رؤوسنا .. ! » .

ولا يفهم الحارس مغزى كلام الفقيه ، وهو يقلب بين يديه ، الجنيه ، الذى يرى أنه لا يساوى شيئا ثم يسأل :

– يا سيدنا الفقيه .. الا يمكن أن تفك لى هذا الجنيه بالدولارات ...!

يقول له الفقيه : انتظر يا ولدى حتى تاتينى دعوة من أصحاب الدولارات ، لعلى وقتها استطيع أن أفك لك الجنيه .. كأيام سيد القصر السابق .. بخمسة دولارات أو خمسة ريالات .. أنت يا ولدى لم تعش تلك الأيام ..

ويجيب الحارس فى وقاحة : أعرف .. هذه الأيام يا سيدنا .. أنها أيام فقر وضيق وحصار .. أيام غضب وخصام مع الريال والدينار .. والدولار ..

......

وفى القصر .. يختفى الهلال .. فسيد القصر الجديد صار قمر

الحفل .. هو معلق فى سقف البهو الكبير ، ما بين الثرايا .. وعلى كافة الحضور الأسافل ، أن يتطلعوا إليه وهو فى سمائه .. المصنوعة من الورق الملون .

ويقوم حرس القصر المدججون بالسلاح ، وهم فى جهامتهم - هدف يقصده سيد القصر - من انعقاد تقاطعيهم البشعة ، بتنظيم جلوس الحضور .. الكبار فى المقدمة .. والمعيار ، مقدار ما يملكون من مال وعقار ونفوذ .. والانصاف يتلونهم .. ثم الأرباع والأسداس والأثمان من العامة .. ولكل وظيفته التى على أساسها يحضر الحفل .. وإذا ما غمغم سيد القصر بالتراهات التى يتنفسها بدون تعقل ، قام أصحاب (المصالح) فى الحفل بترجمة تلك الغمغمات إلى كلمات وجمل مأثورة ومنظومة ، مقتبسة من أقوال أكابر الأدباء والكتاب .. !

وعند تقديم الطعام .. الناس مقامات .. تقدم صحائف اللحم إلى الكبار -وكأنهم لا يأكلون فى بيوتهم لحما - وما يتبقى من اللحم يقدم للأنصاف .. ثم الأرباع .. أما الباقون فلهم الخبز والماء القراح .. « فلا تدخل فى إرادة الله الذى أرادهم فقراء » ..

وعندما يفرغ الجميع من طعامهم ، يكون على رب القصر أن يغمس حديثه اليهم فى الشكوى من جحود الناس وعيونهم المستديرة .. !

وسريعا ما يأتى الخدم بالمباخر .. لا لتعطير المكان .. بل لطرد عين الحسود التى فلقت الحجر نصفين ..

ثم ينهى .. رب القصر .. خطابه .. بتقبل هدايا الحضور ، وعلى أساس « النبى قبل الهدية » .. فهو يقبل المال .. والأوانى الفضية .. والغلال .. والقصائد .. والدواب .. والطيور .. وكل واحد ومقدرته ، التى ستسجل فى دفاتر ، ينظر فيها فيما بعد بعين الرضا .. ثم يطلب من كل الحضور .. قبل هضمهم لطعامه .. بأن لا ينسوا .. أن يمنحوه أصواتهم ليجالس الحكام ويقوم بتمثيل البلدة .. (خير تمثيل) .

وإذا ما ساد الصمت ، قام أحد أعوانه برفع القرآن الكريم .. والأنجيل .. ويطلب من كل واحد ومذهبه ودينه ، أن يضع يده على الكتاب المقدس ويقسم وإلا تحول طعام رب القصر وشرابه فى جوفه إلى سم زعاف ..

وعندما يهبط - سيد القصر - من مكانه القمرى .. تواضعا يمشى مختالا بين ضيوفه ، يتجمع حوله الشيوخ الذين تجرعوا الدنيا وملذاتها ، وتجشأوا الدين ونواهيه .. وحجزوا لأنفسهم المكانة اللائقة فى المجتمع .. يتوارثها الأبناء والأحفاد .. وهدأت خواطرهم تجاه الأولى ، وقد التفتوا ، والعمر يتسرب .. إلى طلب الثانية ، التى هى خير وأبقى ، يتطلعون إلى - قصر فى الجنة - يفوق قصورهم فى الدنيا .. طوبة من ذهب وطوبة من فضة .. وحدائق ممتدة ، وأعناب وتين .. ونهر من اللبن .. ونهر من العسل المصفى ، أنهار تجرى تحت أرائك مرصوصة ، وحوريات مبثوثة فى الأركان ..

ومعظم الشيوخ من الكبار يتمنون أن يكونوا كما هم فى الدنيا ، أصحاب المقدمة .. أن تكون لهم فى الثانية ، نفس المقدمة .. « كما كان فى اعتقاد المصرى القديم » .

لكن صاحب القصر – يتوجس – ويصعب عليه ترك ما جمعه للأقارب ، وهو الذى حاول ولم يتوصل إلى الولد من صلبه ... !

كيف يرث الأقارب الجاحدون ما سنخلفه ، وكأننا جمعناه صعبا ورهيبا ليستمتعوا بما جمعناه وكنزناه ... ؟

الكلام موجه للفقيه الزاهد الذى انزوى فى أحد الأركان يجلس منطويا يتأمل صروف الزمان ومفارقاته ، ويداعب مسبحته فى انتظار انتهاء الحفل ..

وحمله الخدم إلى حيث السيد القمر ، واصحابه الكبار .. طلبوا الفتوى .. فأفتاهم .. قال :

– لا تحزنوا أيها السادة .. إنها سنة الحياة .. نحن نزرع النخيل ليأكل من ثمرته الأحفاد ..

ويقترح كبير كان له بعض العلم .. بناء المساجد لتحمل اسمائهم .. تخلدهم فى الدنيا .. ويقرضون الله قرضا حسناً ، بعشرة أمثاله ، هى صفقة رابحة ، يوقفون بها أموالهم ، ليحرم منها الأقارب والورثة الشرعيون ، وقد انتشرت هذه الأفعال بين أمراء المماليك ، فى زمن مضى .. لماذا لا نعيدها .. ؟!

وقال الفقيه الزاهد :

– وأين حق الفقير .. واليتيم .. وعابر السبيل .. أين نصيب الفقراء والمعوزين فى أموالكم .. ستكون صلاتهم فى مساجدكم ناقصة .. !

امتعض – سيد القصر – وساندة الكبار ، وانبرى أحدهم يذكر أمام الذين نسوا .. بأن هذا الفقيه الزاهد من سلسال فقير ، وأن زهده جاء لعجز فى الوصول إلى الثروة ، وهو إذا ما كان له من جاه الدنيا ، ما كان بسهوله يوزعه على الفقراء واليتامى وعابرى السبيل .. !

وتعالت الضحكات الفارغة على (القفشة) التى كانت تضرب فوق الرؤوس كغراب البين ، وتمادى القائل إذ رآهم يضحكون .. وقال : أحلام القطط .. كلها فئران .. ها ها ها ..هاى

وقال الفقيه الزاهد : حق الناس فى أموالكم ليس صدقة .. سيشترون منكم قصوركم فى الدنيا والآخرة .. ويتركونكم فى العراء .. كما تركتموهم فى العراء ، واستوليتم على أنصبتهم فى حياتهم الأولى ..

ضاع صوت الفقيه الزاهد فى أصوات المداحين ودفوفهم .. وضرب مزاهرهم ..

بدأوا بالصلاة على النبى العدنان .

وثنوا بذكر فضل صاحب القصر ..الكريم ابن الكرام ..

وهو المعلق بين الثرايا .. كالبدر التمام ..

والفقيه الزاهد

لم يكف

حتى قال كل ما يراه حقاً .. يسمعه الكبار وصاحب القصر .. أو يتخطونه ، ويستمعون إلى المداحين ..

فهذا الأمر لا يهمه كثيرا ..

والتجربة أثبتت أن ..

كل المياه التى تسقط من السماء .. تعود ثانية إلى البحر .. فهى منه وإليه .. !

* * * * * *

المسافة

فرصة .. انتظرتها اكثر من عقد ، منذ انجبت طفلتها الأولى ودخلت المدرسة ، حتى حصول ابنتها على الشهادة الابتدائية ، وبحكم القرابة ، كانت تجمعنا المناسبات السعيدة ، وغير السعيدة فى عائلتنا الكبيرة ..

كنت أراها فى أثواب الاحتفالات المرحة قد تزينت لى وحدى وكانت تنتظر رؤيتى لها وكلمات اعجابى .. وكنت أراها فى ملابس الحزن السوداء أكثر جمالاً ..

والحزن يتكسر على رونق وجهها .. دعوة لتقبيلها .. صار جمالها مقياسا ، أقيس عليه جمال كل النساء ، لا تتجاوزها إحداهن ، قد تقترب منها أخرى ، لكنها تقف بعيدا عن عتباتى .. صار بيننا ذلك الحوار الصامت .. فنحن لا نتقابل عادة إلا بين الآخرين .. ولهم عيون .. !

إذا ما ناولتنى فنجان الشاى ، ولمست أصابعى .. أنتشى .. وإذا سلمت عليها ، ضغطتُ على يدها ، فتتشبث أصابعها بكفى ..!

تثار بعض الخلافات بينها وبين زوجها ، إذ تقارن بينه وبينى ، تذوب الخلافات ، إذا ما استعان بوساطتى ..

هو ابن عم زوجتى .. ولا يقصر فى القيام بدور الزوج الوفى ..
ربما كان هذا ما يجعلنى أقف ، بعيدا ، على مسافة لا اتخطاها اغالب رغباتى واكبتها ، بينما هى تتخطاها أحيانا فى نزق وعفوية تصيبنى بالتوتر والرعب !

ذلك الرعب الذى يمزق حديثى ويفتت أفكارى ، ويشتت انتباهى ، وأنا بين الآخرين حكاء ، يستمعون إليه فى شغف ..

هى التى تستمع إلى فى شغف ، وجعلتنى اقتنع بذلك ..

إذا ما تكلمت فى حضورها ، كأنى لا اخاطب إلاها ..

وقد تخطت نفور زوجتى .. وتجاهلت تجهمها ، واصرت على أن تعقد معها عقدة محكمة من الصداقة والعلاقات ، لنتزاور كعائلتين ..

تحتضن ابنى وتقبله بشغف ، وهى ترنو إلىّ ، اشعربقبلاتها حارة على شفتى ، وقد يعمل خيالى فى إزالة كل العقبات التى حالت بين زواجنا .. يشطب زوجها وأولادها .. ويشطب زوجتى وأولادى .. ويبقى علينا نحن الأثنين .. وحدنا فى غرفة نوم ، فى أمن من تعثر لذتنا وتوقفها ..

وقد غطت الغفلة على كل العيون وأصمت كل الآذان .. أنا وهى والدعوة لتحقيق رغبتنا التى تفصح عنها ، حركاتنا وسكناتنا .. !

لكن كل ذلك كان لا يتجاوز الخيالات التى تجوس فى الذهن وأستمتع بها ، ثم ألقيها وراء ظهرى لأمارس حياتى العادية ، طبقا لما هو سائد .. وبشئ من الإدعاء الأصيل .. !

وفجأة .. وبدون سابق ترتيب ، لاحت الفرصة الذهبية ، وجدنا أنفسنا وبدون عوائق .. معا ..

الزوج فى سفرته .. وابنتها صحبة جدتها ، اعتادت أن تعيش معها .. والولد « ممدوح » الشقى ، الذى استدعيت لردعه ، وقد امتدت يده إلى بضعة جنيهات ، اختلسها من مصروف البيت المودع فى الدولاب ..

ما كاد يعلم بدخولى من باب الشقة ، حتى فتح الباب وتسلل هاربا ، وفى ظنى أنه سيذهب إلى بيت جدته ولا يعود إلا معها ..

جلست أمامى تنعى حظها فى ابنها .. وهى التى ربته على الأمانة والصدق ، فجأة تكتشف بأنه يسرق النقود من الدولاب وينفق ما يسرقه على أصحابه الفاسدين .. !

أخذت أخفف عنها ، وأحدثها عن مرحلة المراهقة ، ووقوفه على عتبة الشباب وتمرده ، وأطلب منها ألا تنزعج ، فالأولاد لهم أخطاؤهم التى يتناساها الأهل ، إذا ما كبروا وتعقلوا .. وبينما هى منفعلة تلامسنا .. فتحرك الشيطان الذى هو ثالثنا وبدأ يمارس مهامه المفضلة ..

وكأنها تبينت فجأة .. أننا ومنذ فترة خروج ممدوح متسللا صرنا وحدنا .. والأبواب مغلقة علينا .. لن يقتحم خلوتنا أحد لساعة على الأقل .. لم أتبين اضطرابها .. ولكن ..

الحديث قطع .. واخذت أبحث عن طرفه .. وخيل لى بأنها ألقت به على فراش حجرة النوم ، لكى نواصله هناك ونحن نتعامل مع الوقت بحرص البخيل فى التعامل مع أمواله ..

كانت ترتدى ثوبا من الأثواب البيتى التى ضاقت على جسمها ، فترك ذلك إثارة غير متعمدة ، إذ صار محبوكا على جسمها الناضج .. وقطعت الصمت المتوتر .. قامت ووقفت قبالتى وقالت :

- أنت تشربها مضبوط .. حالا سأعمل لك فنجان قهوة مضبوط ..

لابد انها تريد أن تهرب إلى المطبخ لتتوازن ، أو أنها تتحرك بعيدا عن المدخل لأتحرك خلفها ، لم أرد ، كنت أتطلع إلى قوامها .. كان وسطها قد امتلأ قليلا ، ورقبتها صارت غليظة إلى حد ما ، وذقنها الدقيق امتزج فى اللغد الصغير الذى جعل لوجهها تلك الاستدارة القمرية ، وجهها لم يزل وضاء كطلعة الصبح الربيعى .. وفى وجنتها تلك الحمرة ، التى ترى فى وجنات الصبايا إذا أصابهن مس من خجل ..

تحركت فى اتجاه المطبخ .. الذى يقع فى الطريق إلى حجرة النوم .. وتركت لى كما هائلاً من الهواجس والرغبات اقلب فيها، ويثيرها شيطانى الذى صار يمسك بيدى ..

ولكنى أخذت أردعه لأقوم بتنظيم رغباتى وهواجسى فى نسق له

بداية وله نهاية .. فلم أفلح .. لم اعثر على البداية .. وآثرت أن اترك البداية لها ..

« الرجل لا يأخذ من المرأة إلا ما ترغب فى أن تعطيه .. »

ستقوم بوضع بعض الأصباغ على وجهها ، وسترتدى ذلك القميص الذى رأيته يوما تحت الروب السماوى المشغول الصدر بالورود والاغصان ، ومدحته من باب ابداء الاعجاب .. فكادت ترتمى فى صدرى ..

إذا ما فعلت ذلك ، ستكون قد وقعت بالأحرف الأولى على الموافقة المبدئية ببدء الفعل ..

ولكنى لم أكن أتصور .. إذا ما بدأنا الفعل .. إلى أى مدى سنصل .. انكتفى ببضع قبلات .. ؟ أم احقق رغبتى .. التى تجد عندها صدى .. ؟ .

تركت لى التليفزيون مفتوحا .. لم ادرك شيئا مما يتوالى تقديمه ، ولكنى بقيت شاخص البصر نحوه .. تنسكب بداخلى الألوان والصور بلا معنى ..

وعادت بفنجان القهوة وكوب الماء البارد الطويل ينتصب فوق الصينية المعدنية اللامعه .. لم تضف شيئا من المساحيق على وجهها ، وإن بدا محتقنا من جراء الغضب من آبنها .. فصار أكثر توردا ..

عادت بنفس الثوب .. ولكنها جمعت شعرها الكستنائى الثقيل فى غطاء للرأس من القطن يشبه الطاقية الشبيكة ..

عندما دخلتُ الشقة لم تكن تلك الطاقية الشبيكة على رأسها ..
وكنت قد انغمستُ فى عينيها ..

انتظرت أن تلمس أناملها أناملى إذا قدمت لى فنجان القهوة لكنها وضعت الصينية على مائدة صغيرة أمامى وجلست فى المقعد المواجه .. وقد أراحت يديها فى حجرها ، وألقت برأسها على صدرها .. ولم تزل تعبر عن دهشتها فى اطراقات حزينه .. « كيف يسرق ممدوح .. وأنا ووالده لا نبخل عليه بشئ ؟ » يسرق مصروف البيت .. ويجعلنى إسئ الظن بوالده .. كذا مرة ، اتهم والده بأنه يغالطنى فى الحساب ، وهو يعطينى مصروف البيت .. » .

كانت تلقى بكلماتها مغموسة فى مقدمات البكاء ..

ودلقت كوب الماء البارد فى جوفى .. وأنا أرنو إليها .. فى جلستها على المقعد المواجه ، كنت أراها تجلس بعيدا .. على مسافة لا يصل إليها صوتى ..

وكنت أستجمع ما تبعثر منى فى اتجاهات مختلفة ..

لأبدأ (موعظتى) الساذجة ..

حول الأولاد ومشاكلهم .. ولأضرب الأمثلة .. بابنى مصطفى .. وكيف أجد معه .. نفس العنت .. فى التربية ..

وعندما هطلت دموعها تأثرا .. كان شيطانى يقول لى .. « الفرصة سنحت الآن .. لتواسيها فى أحضانك .. »

كان يهمس فى أذنى .. « قم من مكانك يا رجل وتحرك نحوها فهى تبكى .. ! » .

* * * * * **

إذا ما انصـرم النهـار ، أطبق الظـلام .. والظلام يأتى دامسـاً بعد النهار الوضاء .. ولكى نقاوم الظلام نزداد التصاقا ، والتفافا حول بعضنا البعض .. ونشعل أعواد الثقاب ، لم يكن متاحا لنا إلا أعواد الثقاب نبدد بها ظلمة الليل وبرودته ..

من يشعرون بالبرودة فى الأوصال - ترجف منهم القلوب - يقتربون من مصدر النار والضوء .. للاستدفاء والونس .

وكنت معهم .. يجذبنى الضوء وآمل فى أن حرارتة ستبدد شعورى بالبرد .. مع أنى كنت على دراية بأن ما يُشعل هى أعواد الثقاب التى سريعا ما تخمد وتنطفئ .. ومع ذلك كنت معهم آمل فى أن يكون لدينا كثير من العيدان لتضئ لأطول فترة ممكنة ، حتى يبزغ الفجر .. !

.. .. ..

وكنا نجتمع حول الترابيزة الخشبية الجوزية المستطيلة ، فى الحجرة الفضية المربعة ، ذات النافذة الوحيدة التى تتقاطع بأسياخ الحديد المتوازية فلا تسمح لأحدنا بأن يطل برأسه منها على الميدان المجاور والذى يفضى إليه شارعنا الضيق ..

وكنا إذا اجتمعنا ، خلفنا على عتبات المؤسسات الرسمية التى نعمل بها ، جهامتنا .. وأثقالنا .

من اجل لقاء دافئ ، يجمع مجموعة من الرفاق ، يوما من كل اسبوع ، لنكف عن التطلع فى حروف الأحزان ، وابتلاع ملح المهانة .

الأوراق التى نطرحها على الترابيزة هى أوراقنا ، وما سطر فيها هى حروفنا ..

وحتى نمد الحلم برحيقنا فلا يصاب بالجفاف ، شرعنا فى إصدار مجلة ادبية .. !

فصار معظمنا مهموما بالإبداع وقد تعلقت المسئولية بخناقه ، وصار البعض ينظر إلى الأمر من زاوية ، من يكون الرئيس ، ومن يكون المرؤوس ، ولكن الدفء سريعا ما ازال الأنقسامات وسريعا ما صارت لاجتماعاتنا طاقة تتولد ذاتيا ، فتشعرنا بالدفء العميق ، وتخلق لما نبدعه ، إشعاعات تملأ المكان بالأضواء المبهرة .. وتجذب (تلك الإشعاعات) مزيدا من الرفاق .. والرفيقات .. ! .

فاضيفت حول الترابيزة .. اعداد من المقاعد التى صنعناها فى عجالة ، وكان على من يجلس عليها ان يحذر السقوط بها ، وكنا فى فترة الإعداد .. ففضلنا ان يمسك – من يستطيع – القلم بيد ، ومستلزمات البناء فى اليد الأخرى ، اعتمادا على جهدنا الذاتى ..

الذى صار من ضخامته « أحد مواد الاتهام » عندما شك وكيل

النيابة ، ورأى أن القلم ومستلزمات البناء لعدد قليل من الأفراد ، لا يخلف كل هذا التراكم المادى والمعنوى ، وصاغ سؤالا أساسيا ، تعرض للنفى القاطع « أى الدول الأجنبية تزودكم بالمساعدات .. ؟!» .

.. .. ..

عندما صار لاجتماعاتنا طاقة تتولد ذاتيا ، وصار لما نبدعه اشعاعات تستخلص النهار من قلب الليل البهيم .. كان الود يتفاقم ويحط كطائر وديع على ترابيزة الإجتماعات .. فإذا بالشموس المضيئة تزداد توهجا .. وإذا بأدق التعبيرات تبدو واضحة ، فينقطع الذين لا يتحملون المكاشفة ، ولا يتبقى لحميمية اللقاءات إلا أصحاب القلوب الصافية ..

فى ذلك الوقت .. وقع بصرى على وجهها الجميل ، وضاء وشديد الجاذبية ..

(بسمة) تلك النسمة العليلة .. إذ كنت فى مرحلة البناء مشغولا ، فلم أنتبه أن الترابيزة المستطيلة صارت دائرية.والحجرة الفضية المربعة .. تحولت إلى ردهة واسعة لها أركان الحدائق .. والنافذة المتقاطعة بأسياخ الحديد ، تحولت إلى نافذة كبيرة بدون عوائق ، يمكن أن نطل منها عبر شارع ضيق ، لنشاهد الميدان.والنافذة عكست فى قاعتنا لون السماء ، مع تلك السحب الفضية الربيعية التى تتهادى ..

وكانت (نسمة) توسد أمامها على الترابيزة أوراقها، بها قصة (قلب أخضر) كتبتها بلغة شفيفة وانفعال صادق ، تجنبت الكلمات الثقيلة ، فلجأت إلى ألوان الزهور وأريجها ، وأطياف الخيال وتهاويمه ، لتصنع من فصولها ، زهرة يانعة ، غلفت أوراقها بغلاف من البلاستيك الأخضر ، ورسوم تنمّ أن لها موهبة ، في أكثر من مجال .. !

وعندما كانت تتحدث عن – القلب الأخضر – كانت تميل بصدرها البكر على ملف الأوراق ، وتحيطه بذراعيها وترنو إليّ ، بمقال طويل .. كان ولابد وأن تتخلله مجموعة من الآهات ..

تلقائيا تحسست الشعر الأبيض في فوديّ ..

ولكني كنت قد حلقت في عالم من السحر والبهجة ..

فمنذ زمن بعيد ، اعتدت أن يسكن قلبي الخواء الغامض ..

وغابت عني كل الأوراق التي سيقدمها الرفاق .. كمادة للمجلة ، واستحالت إلى حشائش خضراء عديمة الرائحة ، فيما عدا زهرة وحيدة ، وفيما عدا تلك الحالة التي تتألق في فيض من الموسيقى السماوية .. لقد استحالت الكلمات التي تقولها (بسمة) .. فراشات وعصافير وأزهاراً .. تحيط بي وحدي .. وتطلقني إلى حد التوحد والذوبان .. !

.....

منذ كنا نمارس الاختلاف والاتفاق فى محاولة لخلق عالمنا الخاص الذى نحلم به ، وكان البعض يتمسك برأيه بأن نلقى من النافذة المتقاطعة باسياخ الحديد ، بكل الأوراق التى تضم الفراشات والأزهار .. على اعتبار أن الطبيعة تقدم ما هو افضل مما يقدمه المبدع .

وكنت ، ربما لأنى الأكبر سنا ، وصاحب التجربة ، اطلب من الشباب أن لا يتسرع .. فإن الزهور فى الباقة تتساند على الحشائش الخضراء وغصون الأشجار ، وأن الزهور فى الباقة لا يبدو رونقها وجمالها خلاباً ، إلا بين الحشائش الخضراء عديمة الرائحة .. وأن الطبيعة التى يعتبرونها المبدع الأعظم ، هى التى أتت الينا بالأزهار والحشائش الأخرى .. وعلينا أن نتقن فن التنسيق ، ولا نكدس الزهور الجميلة فى باقة واحدة .. فنكون كمن لا هم لهم إلا إظهار مقدرتهم المالية الجديدة ..

و (نسمه) كانت فى صفى ، وفتحت صفحاتها المطوية ، فتمهلت ضجة ممارسات الحرية .. واصخنا السمع لقصة (القلب الأخضر) فى خفقاته الأولى بالوجد ..

كان صوتها يأتى من خلف الزمن ، حبى الأول ، تيعثر فى عديد من الاتجاهات والنظرات ، وعندما حدد حروفه وإشاراته ، كان الزمن قد دفعنى بعيدا عن محطتى الموعودة .

فصرت أتوكأ على قيثارة .. تهفو الروح على نغماتها التى ترغم الأفئدة على الإنصياع ..

وكانت نسمه – فى كل لفتة ونظرة ولمسه .. تدعونى إلى ارتياد عالمها البكر ، كأول مكتشف .. ارفع علمى على ربوتها ...

وبينما تتنقل نسمة من مقطع إلى مقطع .. ومن فصل إلى فصل ، كانت اللقاءات قد تعددت ، ووصلنا إلى الفصل السابع.كفت فجأة .. وشهقت مذعورة .. وظهر الرعب فى عينيها.استحضرت كيانى الذى كان يجوب الآفاق .. وسقطت نظراتى على مصدر الرعب ..

إنها خنفساء سوداء مقيتة ، كانت قد تسلقت ساق الترابيزة وأخذت تزحف بأرجلها الخشنة فوق أوراق القصة ، التى كانت على وشك الانتهاء ..

حقا كانت خنفساء بشعة ، والأبشع ظهورها المفاجئ وجرأتها وهى تخطو ، فأوقفت حالة تحليقنا بعيدا .. وأجبرتنا على النزول إلى أرض الواقع .

ولم يفكر أحدنا بأن تلك الخنفساء البشعة ، كانت مقدسة من أجدادنا القدامى .. عندما صوروها تدحرج كرة الروث .. وكأنها تدحرج كرة الشمس .. فى العالم العلوى والسفلى ..

قبل أن يفيق الرفاق من هلعهم ليعبروا عن خجلهم من حالة الهرج وا فساد اللحظة السماوية فى قصة القلب الأخضر .. كنت قد عثرت على ما يمكن أن اسحق به ، الخنفساء البشعة ..

وألقىٍ بها بعيدا عن الزهرة اليانعة .. ولم أدر أننى قد استخدمت

صفحة من (قصة حياتى) لأجمعها فيها ، واسرع وألقى بها فى دورة المياه .. !

فيما كان الهدوء يعود متكاسلا .. ونسمة ، تطلق أجراسها حول القلب الأخضر من جديد ، وأتجنب أن تصدم قدمها بقدمى تحت الترابيزة ، أحزننى أنى فقدت صفحة من قصة حياتى ..

انصرف ذهنى إلى ما كتبته فيها .. وإذا ما كان بين أوراقى (مسودة) استطيع أن انقلها من جديد ؟

وعندما اهتديت إلى إمكان كتابتها .. كانت نسمة قد فرغت من (قصتها) واغلقت باب القلب ، ووجدت نفسى اقف – مرة أخرى – عند عتبة الباب الموصد استكمل سنوات الانتظار المقدرة ..

أتوعد بالسحق تلك الحشرات القذرة ، والتى كانت مقدسة كرمز ، حتى لا تقتحم اجتماعاتنا ، وتبدد تحليقنا فى سموات الابداع ، وترغمنا على الهبوط الإضطرارى ..

* * * * * *



نغدا تأكل التفاح

البنت (نغدا) الكردية ، وقفت امامى تأكل التفاحة ، ولا يهتم جسمها الفائر ، فى الثوب الحرير ، بالبرد الزمهرير ، والثلج المتساقط خارج نافذة المكتب الذى ضبطت حرارة المكيف فيه على درجة الربيع النائم فى احضان الصيف ، البرد الذى يتساقط كندف القطن ، كان قبل أن تأتى إلى مكتبى (نغدا) الكردية الجميلة ، يتساقط بداخلى ، البنت نغدا فخر الدين قضمت خد التفاحة الحمراء التى لا تختلف كثيرا عن خدها ، فوجعنى قلبى .. انتفض فى صدرى ، ماذا يا بنت يا حلوة .. هل قضمتِ قطعة من قلبى .. ارحمينى ، وحياة أبويك .. ولا تتلكأى فى المكتب الذى ينغلق بابه تلقائيا ، ويركبنى مع دخولك الف عفريت ، أنا مغترب منذ شهور طويلة ، وإبليس يمسك بيدى ليدلنى على الطرق الخفية فأقاوم .

للحظة شعرت إن الأورطى الأزرق – صار أسود نيلة – وكف حجابى الحاجز ، عن العمل اللاإرادى .. تأتى نغدا وبعفوتها ، تحاول الحديث معى باللغة العربية ، وتقترب منى كثيرا ، فأحدثها باللغة الكردية ، وأنا لا أعرف فى الشهور السبعةللسنة الأولى سوى « بيانى باش .. وشوباش » أقول الأولى فى الصباح ، وأقول الثانية فى المساء ، وتعلمت « فارمو » يعنى اتفضل .. أو تعال .. وكنت كلما دخلت

المكتب أقول لها .. بيانى باش .. فارمو .. فتقول « صباح الخير كاكا »
وإذا بالصباح يصير مغسولا بماء الورد .. وكانت « بنت اللئيمة »
تتعمد أن تناغشنى وتتركنى فى مفترق الطريق .. لكنها اقتربت منى
فرفعت لها ثوبى ودخلت فى أحشائى ، سكنت تماما فى قلبى
الموجوع .. وكان يصيبنى الإنزعاج ، إذ إننى بالنباهه أرى حولى
محاولات الانفصال عن الجسم الأم .. أشعر بالنار تندلع تحت أقدامى
التى لا تستطيع حملى ، اترنح واتساند على طرف المكتب ، تطلب
منى الجلوس .. وتجلس قصادى وتميل بصدرها على المكتب فأنظر
فيما بين لقاء الرمانتين ، وأفكر كيف يكون المشى فى طريق الخطيئة
– بدون اصابات جسيمة – وليرحمنى الله ، لاطفئ ذلك الحريق ،
وألجأ إلى مهارة المصريين ، عندما يعتقدون أن الله أخذ منهم كل
حاجة وترك لهم الفتاكة ، بدليل ، أن أطراف الوطن فى أقصاه يؤكدون
إننا بائعو الكلام الجميل فى الأفلام التى يحفظونها عن ظهر قلب ..
ويلصقون فى حجرات نومهم صور أبطال السينما منذ الستينات
حتى اليوم ..

اندفع من (المعمل) وألقى بنفسى على اكوام الثلج الذى يتراكم
على جنبات الطرق ، هذا ما أود القيام به بالفعل ، لاترك نفسى
اتدحرج على سفوح التلال البيضاء .. هابطا ، اجمع الثلج حول
جسدى الملتهب .. الذى اشعلت فيه (نغدا) النار ، حريقة هائلة ،
حتى أصير كرة كبيرة ، تتدفق وتدور .. تكبر وهى تتدحرج .. هابطة

.. حتى تصل إلى ذلك القبر الوحيد ، الذى يقوم وحده فى ذلك الخلاء .. يتلقى عصف زمهرير الشتاء الثلجى .. وقد احيط بسياج من الحديد ، لماذا يحبسونه ؟

.. أنه كما قالت نغدا وأنا أتأمل وجهها الجميل "هو سيدنا الذى جاء يعلمنا العربية والقرآن الكريم ، وآداب الحضارة العربية .. وقد تلقى علومه فى الأزهر الشريف .. هل تصدق (ياكاكا) انه عاش فى القاهرة وجاء الينا .. ليعيش فى (السليمانية) ومات ليدفن هنا .. فى مفترق الطرق .. ليراه الناس فى ذهابهم وعودتهم .. تنبت حول قبره الأشجار .. قصيرة لا تحجب الرؤية عنه من كل الاتجاهات .. كما أن الثلج لا يتراكم فى محيط دائرى حوله .. در بالك .. أنظر .. !

والسيارات تنقلنا من بيوت السليمانية المنخفضة واوتيلاتها الفقيرة ، فى السيارات السوزكى الصغيرة .. تمر علينا فى الصباح ونحن نتنفس الدخان .. ويتجمع الدم قانيا فى الخدود الصابحه ، بينما يهرب من الأطراف .. فتنتفخ فى الأصابع ، وأول ما يقع عليه النظر إذا طلعنا من شوارع المدينة التى تتحاضن بيوتها فى السهل المحاط بالجبال .. يكون قبر – سيدنا – هنا.ونحن ننصرف من (المعمل) فى رتل السيارات فى شبه فرقة عسكرية مهزومة تنسحب من مواقعها إلى الغرف البعيدة الدافئة.برد الشمال يشبه برد سويسرا ، لكن التزلج لا يصلح فى النتوءات البارزة .. القبر الوحيد

المسيّج بالحراب ، هو وحده الذى لا يتراكم فوقه الثلج ، مع أنه يربض فى سفح جبل صغير والأشجار القصيرة التى تحيط به تبقى مزهرة .. تنفض عنها الثلج فى دائرة تبدو سوداء ، تشعرنى بأن هذا القبر الوحيد ، يشع حرارة تذيب الثلوج حوله ، ولا تستطيع الطبيعة فى قسوتها أن تطمس الأشجار الخضراء التى تحيطه .. ولأن التلال والجبال التى تغطيها الثلوج البيضاء ، تبعد عن مقر الدولة العباسية الثالثة ، نفس المسافة التى بين الاسكندرية وأسيوط .. فقد كان خيالى ينطلق دون عوائق أو حواجز تحول بينه وبين الرقص تارة ، والبكاء تارة أخرى .. ! .

سألتنى نغدا فخر الدين .. ولم أكن قد نسيت اغتيالها للتفاحة .. وفى عينيها أربعة ألوان ، وفى شعرها ثلاثة ألوان ، وفى صدرها تفاحتان ناضجتان ، وفى سذاجتها مكر الماضى والحاضر .

« لماذا يزيل رجلكم شاربه ؟ » .

ولأول مرة ألحظ أن وجه رجلنا بدون شارب ، لكننى كنت قد ذبت وتبخرت فى الألوان الأربعة ، ووضعت يدى على سر دفين من أسرار التاريخ العربى ، كيف انتصر الفرس على العرب حضاريا .. وكيف أن بداوة العرب وبساطتهم لم تصمد أمام اللولى الذى ينشب فى القلوب ويعضها ، والكريز الذى يطبق على التفاح .. سبعة ألوان تهزم اللون الأسود .. حتى لو كان عمليا ، هو اللون الأساسى ، الذى يضمر كل الألوان ..

نغدا يا شقية .. ماذا فعل الشارب الكث امام حركة التاريخ والحضارة .. ؟

أمالت رأسها فى دلال ، حدثتها شجرة الدر ..

قالت : نحن لم نزل نقاوم .. !

ثم نظرت إلى القبر الوحيد القائم وحده فى الخلاء بين تلال من الثلوج ، نظرت من نافذة السوزوكى ، وقالت : انظر ياكاكا ، أنه وحده فى الخلاء. ونحن نأتى إليه ...!

* * * * * *

المفتاح الخامس

تلقائيا .. عندما يطلع سلم البيت الذى أسكن فيه نعيمة ، يده الشمال ، تعرف طريقها إلى جيب بنطلونه ، بحثا عن مفتاح الشقة العزوبى ، والتى كانت – ذكية – تعتقد ، بأنه سلمه لصاحب البيت ، بعد زواجهما مباشرة ، وخاصة وأنه لم يعد يتحدث عن هذه الشقة الصغيرة ، منذ ولادة ابنهما الثانى والثالث .. وترقيته إلى مدير إدارة فى القطاع العام ..

ذكية – ابنة خالته – والتى كانت تعاتبه بشراسة ، إذا ما خلع من أصبعه الدبلة الذهب .. وجعلها فضة .. لكنه تخلص من الدبلة الفضة تدريجيا .. ليبدو كأنه لم يعش يوما مع زوجة ... !

ذكية .. التى كانت – تشيط – ويشم الجيران دخان غيرتها عليه ، أمكن له ، أن يروضها ، ويثبتها أمام الجانب الذى يرغب أن تراه منه ، ومع انه كان يعلم بأن (ذكية) كمعظم الزوجات .. « أدمنت التفتيش فى أوراقه وجيوبه واحصاء فلوسه .. » وكان شديد الانتباه فى أن لا يدع لها ما يثير شكوكها .. إلا انه غفل عن المفتاح الأصفر وتركه فى جراب المفاتيح ..

فسألته ذكية ، وهى تغرف الطعام فى طبقه عن المفتاح الخامس الذى اضيف إلى جراب المفاتيح .. ؟

وقـال وهو يكبت إنزعـاجه ، بل وهـو يلوك الطعـام فى فـمـه فى هـدوء :

– أنه مفـتاح دولاب فى المؤسـسـة ، احـتفظ فـيه بأوراق ومسـتندات هامه .

وابتلع الطعام بمساعدة رشفتين من كوب الماء ..

ذكيـة .. بعـد أن فـرغت من تقـديم الطعـام للأولاد على السـفـرة .. وهمت بالجلوس فى مكانها .. مالت عليه .. وقالت :

– مـفاتيح الدولاب فى الشـغل .. تكون فى عـهدة الفـراشين .. لماذا تزحم مـفاتيـحك بمفـتاح خـامس ؟ يكفى مـفـتـاح المكتب .. وتضع فى مكتبك هناك .. ما يخص الدواليب .

هـو تربـيـة الأفـلام المصـرية القـديمة ، ونجـمـه المفـضـل الدقن ، والمليـجى ، وفـريد شـوقـى ، أصـدر صـوتا مـن حلقـه ، كمـا الدقن ، واشـاح بيده اليـسـرى كما المليـجى ، ثم رفع حـاجـبا واخفض الآخـر كفـريد شـوقى ، ولـم يرد عليـهـا ، حـتى يتـوه التـسـاؤل عن المفـتـاح الخامس فى زحمة مهامها اليومية ..

لكن ذكية .. كـانت تمثل فى مستوى – أمـينة رزق – قامت بوضع أولادهـا الثـلاثة فى حـجـرهـا ، وانكسـرت نظرتهـا التى تحمل شئ من التحدى والتهديد ، وأخذت تخاطب عواطف الأبوة فيه ، وتفكره بالأيام الجمـيلة ، التـى كـانت لهـمـا ، قـبل أن تدخل الشـيـاطين بينهـمـا ،

فتسلبهما الهناء وراحة البال ، كان ذلك فى صوت يتوسل المحبة ، على (طريقة عشاءنا عليك يا رب .. !!) .

......

هو وزكية ، منذ زمن ولادة ابنهما الثانى ، يلعبا معا لعبة القط والفار .. كانوا بإضافة الابن الثالث خمسة صارو سبعة .. لإصرار كل منهما على إضافة نسخة منه ، ساعات ، وازدادت هذه الساعات بمرور الوقت ، يقعدا يتفرجا على ما يدور بين النسختين الاضافيتين من صراع وتحديات .. والنسخ الاصلية تتمسك ظاهرياً بالهدوء والرزانة ، والمبدأ الأساسى ، أن لا يتهدم البيت على من فيه ، خصوصا العفاريت الثلاثة .. ربما قامت إحدى النسخ الإضافية بشطر الأخرى بساطور وتعبئة القطع فى أكياس بلاستيك ، فتقوم النسخة المشطورة باغراق غريمتها فى البانيو ، ثم تذويبها بالمواد الكيماوية ، وصرفها فى البالوعة ، وعمل نجف ولعب أطفال من العظام المتخلفة..

طلقات الرصاص وزجاجات السم الهارى والسكاكين الحادة ، وكل ما يخطر على البال ، لاثنين صارت تدور حياتهما فى السنوات الأخيرة ، حول الفائز والمهزوم .. وقد يعيشا ذلك الصراع الكرتونى للنسختين ، وهما على الفراش ، وفى أشد حالات التواصل والحيوية .. .

وضع عيناه فى طبق الطعام ، وانشغل بتقطيع قطعة اللحم دون أن يرفع ما يقطعه إلى فمه ، كان يفكر .. كيف ينفجر فيها .. لصنع

دخان يجعل الرؤية متعذرة .. ما كاد ابنه سعد الصغير يتناول عرق - خص - من طبق السلطة بأصابعه .. حتى عثر على فرصته التى سنحت ، اقتنصها بألفاظ مختارة بعناية .. تبدأ بالسهل .. ثم تتعقد تدريجيا .. من الضرورى أن يُحمل ما يقوله شيئا من (الثقافة) التى تتجاهلها ذكية بحجة الانشغال فى تربية الأولاد ، وأنه قد ألقى بمسئولية البيت على راسها منذ أن تركت عملها الوظيفى .

بدأ بتأنيب (سعد) لأنه يأكل السلطة بأصابعه العارية .. فإذا بابنه الأوسط - فؤاد - يقطع من الرغيف لقمة ويلقى بالباقى بعيدا ، ها هو موضوع آخر يمكن الدخول منه .

« تعلمْ كيف تأكل السلطة بالشوكة أو الملعقة .. يا سعد .. كان لابد وأن تعلمك أمك أن يدك العارية ربما حملت فى أظافرها الميكروبات .. تمرض ويتسمم بدنك .. ودكاترة ومصاريف على الجهل الذى نعيش فيه .. وأنت ياسى فؤاد .. تقطع من كل رغيف لقمة ، والباقى على كيس القمامة .. » ..

ودخل من موضوع الرغيف ، إلى أزمة القمح العالمية ، إذ أن عرق الخص فى السلطة لم يسعفه ، وربط بين بترول العرب واسعار القمح .. ولم يترك ثغره بين مقطع وآخر ، تنفذ منه ذكية ، وتوقف إندفاعه وتواصل حديثها حول المفتاح الأصفر الخامس .

وحالة الهدوء التى اكتنفته فى الشهور الأخيرة .. فلم يعد يهادن يوما من كل اسبوع - على الأقل - ليتصارعا ، ذلك الصراع الذى

يهد الحيل ، وهو بعد أن يتصاعد بالموضوع ، إلى نقطة معينة ، يمكن أن يقوم غاضبا ، وقد اكل ما يشبعه .. ويرتدى ملابسه ويخرج ، على أنه سيفك عن نفسه ، وهى فى غضبها ، لن تساله الأسئلة المعتادة ..

« على فين يا استاذ – هو كل يوم خروج .. ؟!» .

......

على بسطة السلم وقف ورفع وجهه إلى الطابق الرابع .. ثم إلتفت إلى عمق بئر السلم ، لعل ذكية .. كانت من الذكاء وتبعته إلى حيث تقع الشقة العزوبى ..

وعندما تبين له أنه رجع صدى وقع قدميه ، ليس إلا ، واصل الصعود إلى الشقة العزوبى .. التى لم تعد عزوبية ، بعد أن حلت بها (نعيمة) ..

تقدم من باب الشقة ، رأى أنه يحتاج إلى وش بويه ، ونقر على سطحه الثلاث نقرات المميزة ..

من كذا شهر كانت – نعيمة – تنتظره فى الشرفه ، وتفتح له الباب قبل أن يصل إلى الطابق الرابع ، وتستقبله على العتبه وتحمل عنه الأكياس التى يحضرها .. أو تقوم من عز النوم وتفتح الباب قبل أن ينهى الدقة الثالثة .. فهو لا يستخدم الجرس المزعج ، والذى كان فى نيته أن يأتى بواحد آخر يعزف مقطوعة موسيقية .. ولكن لضيق الوقت لم يفعل ..

رجع إلى الوراء ، وألقى بنظرة فى زاوية منحرفة إلى شباك حجرة النوم الموارب والذى يطل على المنور ..

من خلال خصاص الشباك الأخضر .. كان الظلام بداخل الشقة لم يبدد ببصيص ضوء .. !

وأعاد الطرق .. قبل أن يستخدم مفتاحه ، الذى كان يدخل فى الكالون بسهولة ويخرج بغاية الصعوبة ، وعندما لم يجد استجابة ، أخرج المفتاح الاصفر ، وبلله بلسانه ، وهو يرسله فى الكالون ، انفتح الباب ، وخرج المفتاح بسهولة غير متوقعه ..! وضغط ظلام الشقة الصغيرة بكفه على بؤبؤ عينيه .. خلع النظارة الفاميه المشعرة بالاسود ، وحاذر أن لا يصطدم بقطع الأثاث القديمة والجديدة ، والتى تبعثرها نعيمة فى ترتيب جديد ، لقتل الفراغ .. برغم أنها حامل .. تجهد نفسها كثيرا وكأنها ترغب فى أن تجهض بطريقة طبيعية ، دون أن ترتكب اثما ..

هل أصابها الندم بزواجها العرفى وقد حملت منه ؟!

– نعيمة .. نعمة .. نعناعه ... !

ووصلى إليه تؤهاتها التى تدل على وجودها فى حجرة النوم .. وقد توقع أن سيدات (الجماعة) قد صحبوها إلى اجتماعاتهن فى المسجد الأهلى الذى يطول الدرس فيه ..

ضغط على كل زر نور يصل إليه ، ليضئ مصابيح الشقة .. لكن

الليل مـاذا عنده غـيـر الـظلام ..؟ كـان يلـغـمط مـصـابـيـح الشـقـة بالسـواد ..

– النور مقطوع ؟! من الكوبانية أم من العداد ؟! .

لم ترد عليـه نعيـمـه .. فـأخـذ يصب اللعنات عـلى الرأس الذى لم يتـرك سنتيـمتـرا فيـه إلا وقبله عـشـرات القـبلات حـتى أنه كان يبـوس أذنيها فيقشر بدنها .. !

سـمـع صـوتهـا يـأتى مـتـرنـحـا كـسكيـر أفـرط فى تـناول أصناف مـختلفة من الخمور ، فأصيب بالأعياء الشديد ، لعله دلـع الحـوامل ؟ وهـو الذى عـشـق فـيهـا دلع البنات .. نـعيـمـة لم تصل بعـد إلى عـامـهـا الثالث والعشرون ، وهـو فى ضـعف عمرها .. !

.. .. ..

منذ كانت بنت نحيفه داخلة إلى المؤسسة ، تطلب وظيفة بالدبلوم التـجارى الثـانوى ، وقد رآها سـاذجة ، تـعتـقد أن البـحث عن الوظائف يتم بالذهاب إلى شئون العاملين والسؤال عن الوظائف الشاغرة ...

منذ ذلك اللقاء العفوى ، وجد أنها لا تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة ، وليس لديها فكرة عن أعـمال السكرتارية – وسـألها – كـيف حصلت على الدبلوم ؟

ضـحـكت فى براءة .. وقـالـت : كنا ننقل مـا يملى علينا دون فـهم وخلاص .

صرفها ، فلم تنصرف .. إذ اظهرت حاجتها الشديدة للعمل .. وانها مقطوعة من شجرة .. !

وكان يهم بالانصراف .. امسكت بيده وقبلتها واحتضنتها فى صدرها البكر .. ترجوه أن يكون وسطتها فى الحصول على عمل ، ومنذ أن توسلت ، ولمست قبضته صدرها .. ارتبطا برباط أقوى من أزمة تعطل المؤهلات العليا والوسطى .. وأخذ يحرث فى ارض ممهدة

– المؤسسة ليست فى حاجة إلى دبلومات التجارة

– اشتغل فى أى شغله .. رجاء

عاد يتفحصها بعين الشارى ، وقد ركبت بجانبه فى سيارته ، ورأى فى عينيها الانبهار ، وخاصة عندما كانت صريحة معه .. وقالت له :

– أن لا مكان يأويها ، وقد ضاقت بها عمتها .. وتتعرض لضغوط من زوج عمتها ..

أخذ يتحدث عن شقته العزوبى ، وأنه كرجل متزوج ولديه شقته ، يمكن أن يمنحها لها حتى يجد لها وظيفة ملائمة ، إذا لم يكن فى المؤسسة التى يعمل بها ، ففى أماكن أخرى له فيها أصدقاء أعزاء .. أصحاب شركات خاصة وإستثمارية .

ومرة أخرى تحاول – نعيمه – أن تقبل يده ، وتحتضنها فى صدرها ، فيتركها هناك حتى تستشعر رغبته الخفية .. وقالت :

– أنا بنت بنوت .. على سنة الله ورسوله .. لن أمانع إذا كانت هذه رغبتك ..

فحدثها عن العرض والقبول ، والزواج القديم الذى لم يكن يحتاج للورق والكتابه .. إذ يكفى أن يشهد على زواجهما شاهدان .. قالت :

– لى زميلة تزوجت عرفيا .. فى هذا الزواج لابد وأن يكون الزوج أمينا ويخش الله ..

قال لها فى سعاده ، وهو يضم يدها فى يده :

– لن تجدى أحدا فى الدنيا يخش الله ، كما أخشاه أنا ، بل وأخش زوجتى زكية .. فهى ابنة خالتى ، وأم أولادى ، إذا علمت بزواجى تصنع لى ضجة ، وقد يؤثر هذا على ترقيتى إلى مدير عام فى المؤسسة ..

فلازت (نعيمة) بالصمت البليغ ... !

.....

عندما دخلت الشقة امست حبيبته ، وعندما اشترى لها بعض الملابس وأدوات التجميل ، أصبحت عشيقته .. وأحضر لها (عقد مؤقت) من شركة قطاع خاص .. وتزوجها بالورقة العرفية ، فوقعت على العقدين .. لكن وهو يمسك بيده عقد العمل .. كان قد أملى شروطه .. ووافقت – نعيمة – بدون الشعور بالإذعان ... وكان (العشق) قد خضع لقانون العرض والطلب .. فوجدت نعيمة أن

(الصفقة) لا بأس بها ، لقد ضمنت السكن فى شقة ووظيفة ، وزوج عليه القيمة ، يمكن أن تواصل التعامل مع الطفل الساذج فيه ، وصارت تلعب دورها فى اتفاق بالغ ، فمن يستطيع شراء مسكن ، مهما كان صغيرا ؟ إلا إذا صار فى سن هذا الرجل ، ومن يستطيع أن يمنحها عملا مهما كان تافها ؟ إلا إذا كان فى نفوذ هذا الرجل ؟ ومن له بند هامشى لينفق منه على امرأة أخرى ؟ إلا إذا كان له دخل هذا الرجل .. ؟!

والأيام الحلوة تمضى سريعا ، ما هى إلا أربعة شهور وقد أصابها الدوار ، وعافت رائحة الطعام والدخان .. بل ورائحة عرقه والكولونيا التى يتعطر بها .. !

الطبيب قال له ، وهو يرفع عينيه إلى الشعر الابيض فى فوديه :

– هل أنت والدها ؟ ابنتك حامل فى الشهر الثالث ، فابتسم فى رضاء وسعادة ، إذ صار جسم نعيمة بضا ، وملفوفا ومثيرا لمن لم يتزوج إلا ذكية ابنة خالته .

وقد خلفت – نعيمة – وراءها مرحلة البنوتيه وصارت امرأة صغيرة ، تبذل جهدا لترضيه .. ولعلها كانت تدعوه ، أن يقارن ، لكنه كان لا يخضع نفسه للمقارنة بينها وبين ذكية .. إذ كان يرى ..

أن لكل امرأة مزاياها وعيوبها ..

ونعيمة .. لم تتحدث مطلقا عن مصير هذا الضيف الذى سيأتى

فوق ورقة زواج عرفية .. وقد أخذت الورقة منه ، وألقت بها فوق مسوغات تعينها على الكومودينو ..

وكلما ازداد جسم نعيمة نضجا .. صارت تفك بنس الفساتين والجيبات ، وحتى تتجنب إتلاف الملابس التى اشتراها لها غالية أقترحت أن تتحجب ، ويكون لها ثوب فضفاض ..

وفى عملها بالشركة الاستثمارية ، سيكون هذا مقبولا ، والشركة تتعامل مع عملاء من دول الخليج ، ويوجد بها زمرة من المحجبات والمنقبات ، سريعا ما أحطن بها، وحولوا الحجاب إلى نقاب ، وانشغل عنها فترة ، فملأت الشقة بالكتيبات والنشرات حول الأدعية ، وعذاب القبر والشياطين والملائكة .. ورفعت الصور التى على الجدران ، ورفعت التليفزيون من مكانه .. وانشغلت مع الزمرة ، بدروس المسجد الأهلى ، أو الاجتماع بهن فى منزلها لمواصلة الدرس .. !

قال فى نفسه « لقد وجدت نعيمة شيئًا تتسلى به .. » .

.. .. ..

– نعيمة .. نعمة .. نعنانة .. لماذا تجلسين فى الظلام هكذا ؟

كانت تجلس على طرف – حلبة المصارعة – كما يسمى سريره القديم ، وترتدى ثوبها الفضفاض ونقابها ، تعثر فى حقيبة كبيرة عند دخوله الحجرة .. قالت وقد تحركت لتقف :

– كان يمكن أن أترك لك رسالة .. ولكنى آثرت أن انتظرك لتتسلم

شقتك ، ولأمزق أمامك ورقة الزواج العرفى، وكما دخلنا بالمعروف ، نخرج بالمعروف .. انت رجل طيب ، ولن تقف فى طريقى ..

استوعب الموقف على مهل ، ولم يثر .. وعندما اقترب منها ليثبت لها عقلها .. أو ليطمئن على مصير ما فى أحشائها ، وجدها منقبة وهى فى بيتها .. قال :

– إذا فقد اعتبرتينى غريبا عنك من الآن ماذا جرى يا بنت الناس ؟ ما الجديد ؟ أنا لا أصلح للانضمام إلى جماعتكم ، وتركت لك الحرية .. فلماذا تصادرين على حريتى .. ؟!

جاء صوتها من خلف النقاب الأسود ..

– أنا لا ادعوك للهداية .. كل إنسان سيقابل ربه وبيده كتابه .

– إسمعى يا نعيمة .. منذ أن التقينا وأنا أتوقع نهاية لعلاقتنا لكن ماذا عن ... لقد كنت أفكر فى عقد قرانى عليك رسميا .

– دعنى أذهب ..

قالتها فى صوت خافت ولكنه جاد ، أخترق صدره كسكين .

بهدوء أحضر ورقته وضمها على ورقتها ، وقام بأضاءة الغرفة بنارهما .. وعاد الظلام مرة أخرى ..

فتح النافذة ، فأمكن أن تدخل غبشة المغارب .. قالت بنفس الصوت القاطع ..

– إلق علىّ اليمين ..

قال فى هدوء .. وهو يمد يده إلى كتفها فجفلت :

– هل عثرت على زوج منهم .. أم إنك ستتزوجين مليونيرا له لحية وثوب ابيض .. احذرك ان ..

وعندما لم تجب عليه ، تأكد له بأنها عثرت على ضالتها ، وبأن ابنه أو ابنته ستعيش فى مستوى أفضل .. إذ ستكون أمها نعيمة التى أخذت بيده إلى صدرها ..

« وألقى عليها يمين الطلاق .. » .

حملت نعيمة حقيبتها ومشت فى خطوات وئيدة نحو باب الشقة ، فتحت الباب .. وقد تركت مفتاحها الأصفر فى الكالون بالداخل ، واغلقت الباب بهدوء ، ثم أخذ يسمع وقع خطواتها وهى تهبط الدرج..

ومن النافذة التى تطل على الشارع ، وقف يرقب انصرافها فشاهدها بين امرأتين منقبتين ورجل ملتح فى جُلباب ابيض قصير وفوقه صديرى داكن .. وجميعهم يمضون نحو سيارة (فخمة) كانت فى انتظارهم .. ابتسم لنفسه لأنه شاهد هذا المنظر بعين خياله ..

وقبل انقضاء شهر ، كان قد باع الشقة واختفى المفتاح الخامس ..

.....

قالت نكيه .. وهى تهاجم صراعها اليومى :

– لعلهم فى المؤسسة .. سحبوا منك دولاب الأوراق والمستندات المهمة .. ؟!

فأجاب ، وهو شبه منهمك فى تناول طعامه :

- مسئولية يا ذكيه ، أوراق ، ومهمات .. قلت لهم .. يا جماعة حرام عليكم .. أنا مدير إدارة .. معقول أكون مسئول عن ملفات وأوراق ومستندات ، شوفو لكم أحد غيرى ..

وابتسمت ذكيه .. وهى تقول :

- بركة يا خويا .. المسئوليه وجع دماغ ..

وحتى يخفى توتره .. انفجر فى ابنه الكبير الذى يقلد أخاه الصغير .. ويأكل من طبق السلطة دون استخدام الشوكة أو المعلقة ..؟

* * * * * *

كان يشحن نفسه بانفعالات التحدى ، يقفز إلى أعلى .. ترتفع أقدامه عن الأرض مقدار ربع المتر .. ثم تزيد فى كل مرة بضع سنتيمترات ، حتى صار قادرا على الارتفاع إلى ما يقارب المتر .. ثم واصل التدريب الشاق ، حتى بات يقفز إلىما يزيد عن طوله ، ببضع سنتميترات .. وواصل انجازه البطولى ، البطولة أن يرتفع الإنسان أكثر من طوله ، وأن يخطف من الحديد ضعف وزنه .. !

وتولد لديه شعور بالثقة بأنه فى مرة من المرات التى سيقفز فيها إلى أعلى سيمكنه أن يرتفع خفيفاً فى الفضاء ويحلق عاليا .. ثم يطير .. !

وضاعف التدريب .. رغم أنه كان يسقط على مقعدته ، كان يتحمل الآلام ولا يكف عن المحاولة ، وقد باتت ثقته فى إمكان الطيران تلح عليه وتؤرقه ، صار الطيران من أعظم احلامه .. ماذا لو طار .. بالفعل ، ارتفع عاليا . ثم وقع.يسقط من شاهق ؟

فى المرة الأولى ، وقد خطر له هذا الخاطر ، شعر بالرعب ، لكنه طمأن نفسه بأنه ، سيكون قد جهز لنفسه مظلة ، يمكن أن يستخدمها إذا ما فقد قدرته على الطيران .. وسيهبط بها سالماً ..

كان يخشى – إذا ما سقط أن يمضى بقية عمره قعيدا على مقعد ذى عجلات .. !

وبين فكرة الطيران التى يحلم بها ، وخوفه من أن يمضى بقية عمره كسيحاً ، كان – أنور فوزى – يتأرجح ، بين الشغف الذى سيشق به أجواز السماء .. والتعاسة التى تحط به على أرض تقيده بأثقالها ... وكان قلقه يتزايد .. !

.....

قال له شيخه ، عندما وضع أمامه أسباب انقطاعه عن حضور الدرس ، متعللا بكثرة التمرين والتدريب ليطير سالما .. ويتفادى مفاجآت السقوط :

– عُد يا أنور إلى حظيرة الإيمان .. وستحلق روحك عاليا ، وتشق أجواز الفضاء .. ستطير فوق المدن والناس .. والبحار والأنهار .. وتعود سالما .. !

ودفع إليه برصات من كتب التراث والتفسير .. فاحتضنها ، ومضى بها إلى منزله ، يقرأ فى صفحاتها ، ويتعمق .. !

.....

قال له (أستاذه) الذى يرسخ فى ذهنه حقائق العلوم واكتشافات العصور ، عندما وضع أمامه أسباب انقطاعه عن الحضور إلى ندواته ، متعللا بأنه يقرأ فى كتب التراث ليطير .. !

- استمر يا أنور فى التدريب .. فقد حققت إنجازا يوما بعد آخر .. كنت تقفز سنتيمترات ، وصرت الآن تقفز إلى نصف طولك .. ذلك بداية الطيران الحقيقى .. !

ودفع إليه بأجهزة قياس ولوائح بأنواع الطعام ، ومواعيد التدريبات ، وحدد له العضلات التى يمكن تقويتها .. وكيف يتخلص جسمه من المياه الزائدة والدهون .. ليطير .. !

......

وانغمس - أنور فوزى - فى التدريب والاطلاع ، طبقا لوصايا شيخه وأستاذه ، وكان سعيدا انه يشعر بالتقدم حثيثا إلى تحقيق حلمه ..

وسعادته صارت لا توصف عندما علم بحضور - خبير - إلى مصر من علماء « روسيا » الذين أصابتهم البطالة بعد حل الأتحاد السوفيتى .. وله تجاربه الفعالة والمشهورة فى إثبات نظريته ، بإمكان الإنسان أن يطير بدون أجنحة ، وقد حل بأحد فنادق القاهرة ، عقب عدوان شنته جماعة من الشباب المتعصبين على السائحين .. الأمر الذى جعل أجهزة الاعلام تركز على وجود هذا العالم الروسى .. وتنشر صوره فى الصحف ، وتتحدث عن تجربته فى الطيران ، وتجربته الناجحة فى الصين الشعبية ، إذ قام بتدريب فريق صينى من قصار القامة ، ليلعبوا كرة السلة ، وخلال بضعة شهور ، أمكن لهذا الفريق من أن ينافس فريق السلة الأمريكى فى هارلم ..

ويهزمهم فى عقر دارهم بفارق نقطة ، مما كان حديث الرياضيين فى العالم ، قام جهاز رعاية الشباب فى مصر ، باستضافة هذا العالم الخبير ، ليلقى بضع محاضرات فى الاتحاد الرياضى لكرة السلة ، وفكر أنور فوزى فى أن يسارع ويسافر من الإسكندرية إلى القاهرة ، ويلتقى - بالخبير الروسى - رغم أنه كان يخشى من أساليب الدعاية التى اجتاحت حياتنا ، وقد تعاظمت شركات الدعاية والإعلان التى تصنع من البساريا حيتانا .. ومن الفسيخ شربانا .. !

ومع ذلك فقد سافر أنور فوزى إلى القاهرة ، وأمكنه أن يعثر على الخبير - والموعد - وينتظر سيادته فى « الريسبشن » وكان قد سبقه إلى طلب اللقاء ، شاب تجاوز الثلاثين - من الخواجات - قيل عنه ، أنه من المغامرين ، سبق وحاول عبور المحيط الأطلسى فى قارب مصنوع من نبات البردى ، ليثبت بأن المصريين القدماء عبروا المحيط إلى أمريكا وخلفوا هناك - الاهرامات - التى عثر عليها كجزء من حضارة إحدى قبائل الهنود الحمر ، وقد جاء يسعى لمقابلة الخبير الروسى ، ليتعلم على يديه الطيران ، ولضيق وقت الخبير ، فقد قرر أن يلتقى بالشابين المصرى والأجنبى دفعة واحدة ..

.....

عندما عرض أنور فوزى أمنيته على الخبير الروسى ، ابتسم الخبير ، ثم وضع يده على فمه ، إذ كاد يضحك وهو يتأمل جسم أنور فوزى الممتلئ وهيئته ، التى لا تنم على أنه حاول يوما أن يمارس

الرياضة .. وسارع أنور فوزى يبرر للخبير .. امتلاء جسمه ، وارتفاع بطنه وانبعاجها .. بأن شيخه ، طلب منه - لكى يطير - ان ينكب على قراءة كتب التراث .. وقال إنه ومع ذلك يقوم بالتدريب على يد - أستاذ وخبير - فى علوم العصر .. !

وتخلص الخبير الروسى سريعا من ضحكاته غير الإرادية ، وقال لأنور فوزى بإنجليزية ركيكة :

- قل الحقيقة .. أنت تسرف فى تناول الطعام .. لا تعزى امتلاء جسمك لكتب التراث .. كتب التراث قد تصيبك بالإجهاد والعصبية مما يساعد على حرق السعرات الحرارية ، ويمكن أن تسلمك إلى نوع من الرشاقة والشفافية .. شيخك على حق ، وإذا مشيت على نصيحته ، يمكن أن يزوى بدنك ويصير فى خفة الريشة ، بل وتطير تلقائيا ..!

وسارع أنور فوزى وأبلغ الخبير ، بأنه يستطيع أن يقفز عن الأرض ما يقرب من المتر والربع ، قال ذلك وهو ينظر خلسة إلى الشاب الهضيم الأشقر وفى ظنه أنه بولندى ، أو هولندى ، وأنه لن يفهم ما يقول .. ولكن الشاب كان يبتسم ويهز رأسه ، ويهرب بنظراته بعيدا ..

وكان رد فعل الخبير الروسى أن مط شفتيه وهز منكبيه معبرا عن استهانته بالمتر والربع .. ، الذى ينطه أنور فوزى إلى أعلى .. ونظر فى ساعته ، واستدار إلى الشاب الأجنبى الذى قال فى اختصار:

– جئت إليك لاتعلم الطيران طبقا لنظريتك .. وإذا حددت أتعابك ، يجب أن تراعى بأننى لست ثريا بما فيه الكفاية ، ولكن يمكن أن أدفع النصف .. !

صمت الخبير الروسى قليلا .. حتى استوعب ما قاله الشاب الأجنبى ، هز رأسه بالموافقة .. وقال لهما سويا :

– يمكنكما أن تشتركا سويا فى التدريب ، وبذلك كل منكما يدفع نصف التكاليف ، وهذا الأمر سيستغرق ثلاثة أشهر – على الأقل – لإمكان إجراء التجربة الأولى .. لكن لسوء الحظ ، أنا لن أبقى فى القاهرة سوى يومين .. اليوم وغدا ..

وسكت .. وساد الريسبشن الصمت .. عندما عاد الخبير يقول :

– هل تعلمان أن من يريد تعلم السباحة ، يبدأ بأن يقذف به فى الماء العميق .. ويكون عليه أن يحاول الإفلات من الغرق .. ؟!

لم يعلق الشاب الأجنبى ، اكتفى بأن هز رأسه وطرف بعينيه الزرق ، وقد عقد ساعديه على صدره ، كما لم يجد أنور فوزى شيئا يعلق به ، وقلبه أخذ يدق فى هلع ، وهو يتصور المثال ، الذى يلقيه الخبير ، لا يصلح للطيران .. إذ أن فى الماء العميق يمكن أن يسارع أحدهم وينقذ الغريق ، وإلا فأن كل من يتعلم السباحة لابد وأن يموت .. !

وعاد الخبير الروسى يتحدث بإنجليزيته الركيكة :

– المسألة بسيطة .. وكل شئ فى أوله صعب ، ولابد من المغامرة ، فإذا كانت رغبتكما قوية بما فيه الكفاية يمكن الاستغناء عن جرعات التدريب الطويلة التى هى فى الأساس لزرع الثقة فى النفس ، بل يمكن اختصار الوقت وأن نبدأ العمل فورا ..

عندما تهيأ الجميع للأنصراف .. استدار الخبير الروسى وقال لهما :

– اعتقد أنكما تدركان أن الطيران ضد قوانين الطبيعة .. كما أنكما تدركان بأن الإنسان تغلب على كثير من هذه الصعوبات ..

فهز كل منهما رأسه .. فاذا بالخبير يسند مقعدته على ظهر أحد المقاعد ، تمهيدا لحديث طويل نسبيا ، ويقول :

– .. لقد تعلمت على يد أحد العلماء .. أحد العلماء الذى كان يحاول ذرع أجنحة للإنسان .. لكن نظريتى الخاصة ، تدور حول زراعة الثقة فى الإمكانيات ، والثقة فى النفس .. !

ثم ضحك حتى صار وجهه فى لون الجزر الأفرنجى .. وقال :

– أنا لا أصنع معجزة .. عملى هو تطوير الإمكانيات وهذا يتطلب ، لتجنب الأخطاء القاتلة ، أن تعرف امكانياتك جيدا ..

قال الشاب الأجنبى فى ثقة : معلوم .. أنا أؤيد نظريتك الخاصة بزرع الثقة بدلا من الأجنحة .. فإن الأجنحة المزروعة تلفت النظر ،

وتعيق الشخص فى ارتداء ملابسه على الموضة .. اما - أنور فوزى - فقد وقف يتأمل الخبير تارة .. ويتأمل الشاب الأجنبى تارة أخرى ، ولا ينبث ببنت شفه ، والموضوع قد اتخذ مساره الجدى .. !

.....

خشى أنور فوزى ان يكون ثمة سوء فهم لغوى حملته اللغة الإنجليزية الوسيطة ، فالروسى يتحدثها ركيكة ، والشاب الأجنبى يتحدثها ركيكة .. وهو تعلمها حتى الثانوية العامة .. ثم انقطعت صلته بها .. لكن الشاب الأجنبى صاحب الوجه الطويل المسحوب ، والشعر الأصفر الناعم المهدل على جبهته ، والشفاه الرقيقة المزمومة ، كأنه فى حالة تحذير دائمة ، كان موافقا ومتلهفا على بدء المحاولة ، وقال الخبير الروسى وهو ينهى حديثه :

- اليوم بعد الظهر .. سأذهب إلى برج الجزيرة .. لمشاهدة القاهرة بالمنظار .. هذا جزء من برنامج زيارتى إلى مصر ، وبعدها سأذهب لمشاهدة أهرام الجيزة .. يمكنكما الحضور أعلى البرج الساعة الرابعة ..

سارع الشاب الأجنبى وقال (اوكى) .

وانصرف خفيفا نحو باب الخروج .. ولكن أنور فوزى تقدم وسأله الخبير :

- لماذا - لو سمحت - لماذا اخترت لنا برج الجزيرة مكانا للتدريب ؟

قال الخبير وهو يوليه ظهره متجها نحو الباب :

– إنه المكان المتاح للمحاولة ، أعلى مكان فى القاهرة لمحاولة الطيران .

جرى أنور فوزى خلف الخبير ولحق به عند الباب ، وسأله :

– هل نأتى معنا ببعض المهمات ، ملابس معينة – مظلات ... كيف ، يمكن ... متى .. أين ..

لكن الخبير كان قد سارع وانصرف ، وعندما حاول أن يتبعه أنور فوزى صده بيده وابتسم فى وجهه ابتسامه معناها .. (لا أسئلة إضافية ، لقد بدأ الوقت الذى يخصنى) ، ومضى إلى شئونه ، مخلفا أنور فوزى واقفا متردداً .. يقلب فى عشرات الأسئلة بلا أجوبة شافية .. ويلعن فى سره الشاب الأجنبى الذى لم يُسأل سؤالا .. وكأنه يعلم إجابات كل الأسئلة التى تدور فى ذهن الخبير .

كم يتكلف هذا التدريب .. ؟ وما قيمة نصف التكاليف ؟ ونسبة الخطر فى المساحة الضيقة على البرج ؟ وماذا يعنى بقوله إذا رغبت فى الطيران يمكنك أن تطير ، وعليك وحدك تقدير امكانياتك ؟ إذن ما فائدة الخبير ؟ وعلى أى شىء ندفع نصف التكاليف ؟

هل هو تدريب أولى ؟ أم طيران من البرج ؟ وإذا كان استاذ الخبير نفسه ، قد بدأ بزراعة الأجنحة ، فهذا أمر منطقى ، فإذا لم يقبل الجسم الأجنحة فلا طيران أو خطر الوقوع .. وقعدة الكرسى المتحرك إلى آخر العمر إذا أفلت من الموت .. !

ثم أن الفريق الصينى سبق وتعلم كرة القدم ، وصار ينافس فى بطولات آسيا مع الفريق اليابانى ، واستعاض عن طول الأجسام بسرعة الحركة والقوة البدنية ، فأى معجزة أن يكون للصين فريق لكرة السلة يتغلب على الفريق الأمريكى .. الذى ولابد .. أنهم كانوا يمضغون اللبان ويستهينون بالخصوم فحصلوا فى غفلة منه على الفوز ، بالنقطة اليتيمة ...»

كان أنور فوزى فى أشد حالات القلق والانزعاج ، أن يقع فى يد هذا المجنون ، الذى يريد إثبات نظريته المجنونة على حساب عمره .. فأمضى الوقت المتبقى فى قراءة الكتاب الأخير الذى منحه له شيخه طلباً للطمأنينه النفسية .

وعندما جاء الموعد .. فكر أن يذهب إلى قمة برج الجزيرة ويختبئ فى مكان لا يراه منه الخبير المجنون .. وينظر فيما هو فاعل بالشاب الأجنبى ، مهما كان ، فهما الاثنان أجانب ، إذ كان يخشى أن يطلب الخبير منهما أن يلقيا بأنفسهما فى الفضاء ليطيرا ، كما يتم مع من يتعلم العوم .. يلقى به فى الماء .. ليعوم.فهما إذا ما سقطا من فوق البرج على الأرض جثتين هامدتين سيتسلل الخبير الأجنبى إلى قاعة محاضرات الاتحاد الرياضى ويلقى محاضراته فى هدوء – ولا من شاف ولا من درى – فلا أحد يعلم عن اتفاقهما شيئا .. كما أن الصحف ستقول (انتحار شاب سكندرى أسمر ومتوسط الطول وبدين نوعا ، مع شاب أشقر ونحيف وعصبى التكوين كان برفقته)

وقد تضيف شيئا جنسيا تلميحا ، او تخلص إلى مرض الايدز ، لرواج الصحيفة ..

لا لن اكون ضحية هذا المجنون .. ونظريته المجنونه .. سأذهب متخفيا لأرى (فمن يرغب فى القفز اطول من قامته يستخدم الزانه ..) .

.. .. ..

وذهب أنور فوزى إلى أعلى البرج متخفيا ، وشاهد الشاب (الولد الأجنبى) يقوم بعمليات الإحماء والتسخين وفك العضلات ، كما يفعل لاعبو الملاكمة على الحلبة ، خجل انور فوزى من ارتدائه لملابسه كاملة مع رباط العنق ، ومعه كتاب ضخم ثقيل تحت إبطه ، من يراه يعتقد أنه (خوجه) وليس الذى يود أن يحقق معجزة الطيران بدون أجنحة .. !

وشاهد من مكمنه حضور الخبير بملابس خفيفة وكوتش .. فتوارى خلف أحد الجدران .. ورأى أنهما يبحثان عنه وينتظرانه قليلا ، ثم نظر الخبير فى ساعته وبدأ العمل .. أخذ يحرك ذراعيه وقد دفعهما إلى أعلى ثم جعلهما فى مستوى كتفه ، وأخذ يميل بهما فى اتجاهات مختلفة ، وهو يلقى بإرشاداته على الشاب الأجنبى ، كيف يستدير ، وكيف يهبط .. إذ أنه جلس على الأرض ببطء ثم قام .. وأخذ يصور له (فى كفة) بأصبعه .. أشياء .. كان أنور فوزى بعيدا ، فلم يسمع ما يقوله الخبير الروسى للشاب الأجنبى ، كما انه كان يخشى إذا ما

ظهر ، وبدون أن يجيب الخبير على أسئلته التى تقلقه ، فقد لا يطيعه إذا أصدر له الأمر المجنون بأن يصعد على حافة البرج ويلقى بنفسه فى الفضاء ، وإلا لماذا أحضرهما إلى البرج ؟

ثم شاهد (الخبير) يشير إلى الشاب الأجنبى فى إتجاه الهرم .. ثم ينظر كل منهما قليلا بالمنظار إلى الهرم .. ثم فى اتجاه القلعة ، وعادا ثانية للنظر فى اتجاه الهرم .. وكأنهما يتفقا على مكان الهبوط..

ثم رأى (الشاب الأجنبى) يتراجع إلى الخلف ويقوم بما يشبه الطيران وهو على الأرض .. والخبير يصفق له ويبتسم فى وجهه إعجابا به ، وبسرعة استيعابه .. واعتقد أنور فوزى أنه مجرد تدريب على الأرض ..

لكنه شاهد الشاب الأجنبى يصعد إلى أعلى السور .. ويتخطى السياج الحديدى الذى يمنع السقوط العفوى ، وفى لحظة ، رفع الشاب الأجنبى ذراعيه إلى أعلى ، كمن سيقوم باستعراض غطس .. ثم صنع سوسته بركبته ودفع بجسمه إلى أعلى ..

والخبير يحثه أن ينطلق ..

فانطلق الشاب .. غادرت أقدامه البرج ، وسقط .. فى الفراغ خلف السور .. اندفع الخبير نحو حافة السور ليشاهده .. ثم رآه يتراجع بظهره فى خطوات سريعة ، وهو يشاهد نجاح تجربته .. فالولد الأشقر بعد هبوط قليل ، يسيطر على امكانياته ، بل يرتفع عاليا

محلقا .. فى اتجاه الهرم ..

وكان أنور فوزى ، يود أن يتقدم من الخبير ويسأله :-

- هل هذا طيران حقيقى .. أم أنها تهيؤات .. ؟!

والخبير كان لا يزال يرفع وجهه إلى السماء ، ويضم يديه على صدره ، فى حالة قصوى من النشوة ... !

* * * * * *



.. وهن ساعد (مسرور) .. وتراخت قبضته ، إذ سرت فى الزند التقلصات ، فعل الزمن فعله ، وفقد السياف حذقه ومهارته فى ضربة السيف الباترة .. !

فأخذ يشحذ سيفه ويطيل الشحذ ، يمر بطرف السبابة على الحد الرقيق ثم يضرب به الهواء ، لعل السيف ثلم ،كما اعتاد دوما ، لا يود الوقوف أمام السبب الحقيقى ، تجاهل أفعال الدهر ، إذ أنه لم يعتد الوقوف طويلاً أمام الأسباب ، يستريح ضميره أمام حجته التى بناها حجرا فوق حجر ، واختبأ خلفها .. بأنه (عبد مأمور ..) .

« اقطع رأس هذا يا مسرور .. » يقوم بالعمل فى آلية وبمهارة العادة ، وربما كان ذهنه منصرفا لشئ آخر .. ويسير بعيدا عن الأسباب التى جاءت بعنق هذا أو ذاك إلى حد سيفه ، لا يخوض فى الجوهر ، ولماذا يصيب نفسه باضطراب العصر الذى يعيش فيه .. يسوق إليه الأمير الحاكم المذنبين .. على الفور ينقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء فى رتابة التكرار المستبد ، تتبدل الأحوال فيأتى إليه (الأمير الجديد) بأنصار الأمير السابق .. يمارس نفس العمل فى رقابهم دون أسئلة .. فما دامت الأسئلة قد اختفت فلا مكان للدهشة ، ولا وقت لرعشة الأفكار فى الرأس .. !

السياف مسرور لم يكن بالانسان الساذج - برغم صمته الطويل - وطاعته الأليفة ، فهو من الذكاء لأن يرى إلى أين تؤدى التساؤلات بأصحابها .. (التساؤلات) هى التى تسوق أعناق الرجال إلى حد سيفه البتار .. !

قال له الأمير الجديد فى غضب : نعم ، نحكم على اعدائنا بالموت ، لكن لماذا تعذبهم أنت بسيفك الواهن يا مسرور ؟ أليس فى هذا حُرمة .. أين الضربة القاطعة البتارة ؟

وشخص الأمير بعينيه يتأمل الشعيرات البيضاء التى تناثرت فى ظلام شعر الراس الأسود ، فأحس مسرور بزحف الزمن ودبيبه على عضلاته .. « يريدونك يا مسرور قويا كفتى بهيم .. لكل حى نهاية ، ولكل مرحلة أوانها .. هل حانت نهايتك يا مسرور .. ؟! » .

حاول استنفار عضلاته وحنكته المكتسبة ، حنكته التى أشاد بها الأمراء والملوك الذين عاشوا والذين قتلوا .. إلا أن « جيوشه » لم تلب النداء ، فوقعت قلاعه فى الأسر .. استشعر (مسرور) طعم الهزيمة .. سلم بيارقه للقائد المنتصر ، وأحنى الراس وانسحب من الميدان .. إلى رطوبة بيته وأسواره العالية .. انزوى وحيداً فى ركن منه .. « لديه ما جمعه من مال وهدايا ومنح » .. لكن البيت ينقصه ضجيج الولد .. تعددت الزوجات وبقيت واحدة .. تلك الصامتة دوما ، تجوس فى أرجاء المنزل كالشبح ، تنهمك فى قضاء الأعمال وتُطيل الانهماك حتى تسلم جنبها للنعاس .. !

شعر مسرور بالمرارة لعدم وقوفه أمام الاسباب التى أدت إلى عدم الإنجاب ، فثمة أشياء لها توقيتات محددة لا يمكن إرجاؤها .. لو أنه فعلها فى حينه ، لكان له الآن - الأولاد - يمرحون فى شقه الخالى ، الذى كان زاخرا بالأعمال ، حالما فرغ هذا الشق ، استشعر ضياعه فى هذا الفراغ الذى تجوس فيه الريح ، لكنه يحاول أن يغلق المنافذ بالركون للدعة ، والمسبحة ، والسجادة والأوراد والأذكار .. إلا أنه لم يستطع أن يكون غير « مسرور السياف » .

لم يجد أمامه إلا أن يتابع زوجته بالحديث عن ذكرياته القديمة ، تلك الذكريات المحتشدة بالرءوس الطائرة .. والضربات الباترة .. وعيونهم ، كانت تسليته ، ينظر إلى دواخلهم ، فهى منافذ النفوس .. ليرى وقع بريق سيفه فى أعماقهم ..

تضطر (الزوجة) أن تسمع أحاديثه التى لا يتقن سواها ، تتقمصها الشياطين ، يكتنفها الاضطراب ، فيزيد من بذل الحكايات .. تنخرط فى البكاء .. يزيد فى سرد الحكايات .. تنفجر فى العويل .. وهو لا يدر كيف يطرد عنها هذه الشياطين .. ؟!

حكايات السياف مسرور ، تطرد من أجفان الزوجة الوديعة الكرى ، وتسلمها للسهاد والتعاسة ، إذ أن خيالها كان يستحضر كل القتلى ، بداخل جدران القصر ، فلم يطل بها المرض .. رحلت فى أعقاب كابوس ، جثم على صدرها .. حتى آخر شهقة ..

.. (مسرور) وهو يواريها التراب .. كان يبحث بداخله عن

الشخص الذى يمكنه أن يذرف قليلا من الدمع .. لم يجده .. كان لا يزال هو السياف مسرور ، الذى لا يقف طويلا أمام الأحزان ، وعندما عاد لوحدته فى بيته الكبير ..

رآها تتحرك فى الأركان ، هى زوجته التى واراها التراب ، تقضى شئون البيت ، تسير خلف الخدم .. تأوى إلى سريرها .. فى البداية اضطرب ، ثم تمالك ، عاد يحدثها ويحاول التقرب منها عاد وألقى فى أذنيها ببعض من حكاياته القديمة .. فمرضت على الفور وماتت من جديد .. !

(اندهش)

للمرة الأولى يندهش ، إذ خفق قلبه ، وسرت فى أوردته قشعريرة الأسئلة ، كما سالت من عينيه الدموع ، بللت شاربه ولحيته ، وامتلأ قلبه بالحزن .. فقد اجتاحته ذكريات جديدة .. عما كان بينه وبين امرأته التى خلا منها البيت . صار يراها فى أماكنها المعتادة .. طيفاً .

ملأت صمته بالضجيج ، وشحنت بدنه بالمشاعر .. فإذا بالأيام تمضى مترفقة به ، والعناكب تنسج خيوطها بين السيوف مختلفة الأشكال والأحجام مصلوبة على الجدران للزينة .

ولما عاد إلى نفسه ، اشتاق أن يقلب فى سيوفه القديمة ، كمن يحث الماضى على الحضور ، أخذ يتحسسها ثم يعود ، ويرصها جنب إلى جنب على الجدران ، وفى الصناديق ، بجانب الملابس الثمينة

من السراديل الموشاه بالقصب والعمامات والصدريات والأحزمة ،

فى قاع الصندوق عثر على الخاتم .. خاتم صغير من الذهب وبه فص صغير من الماس ، أخذ يتأمله ويمسحه فى ملابسه ، ثم يعود ويتأمله برفق الذكرى التى تتهادى فى ذهنه .. !

تذكر صاحب الخاتم . الذى أطاح برأسه يوما ، عندما أومأ إليه فتقدم منه يسأله رغبته الأخيرة .. خلع ذلك الخاتم من أصبعه ومنحه له فى ابتسامة الواثق من مهارته ودقة عمله .. لازالت الكلمات القليلة التى تفوه بها هذا الأمير عالقة بذهنه :

– عجل واقطع هذا الرأس الذى يحمل عقلا يفكر ، حتى يتعظ ..!!

.. تضغط المشاعر والأحزان على صدر مسرور الذى يضيق ، فيتسلل من سرداب خفى فى قصره ، متخفيا فى ملابس العامة ويرتاد الأسواق والحانات .. يتسمع الحكايات المرواة ..

« لازال اسمه يتردد فى الحكايات دون أن يلعن من أحد »

ولما بهتت الروايات وتوارت فى الصحف .. كف عن ارتياد الأسواق .. عاد يأتنس بالليل لكن الليل كان يزدحم بالعيون .. كان يراها .. عيونا غارقة فى الدموع .. وعيونا ملتاعة .. وأخرى واثقة .. وغاضبة .. وحزينة .. وعيوناً لها أهداب طويلة ، تزحف بها على ذراعه ، وفوق وجهه ، وتتسلق الجدران .. وتملأ فراشه ، تصطدم بشفتيه إذا ما رفع كأسا .. ويظن أنها فى كسرة خبزه إذا ما لاك طعاماً فى فمه .

ركبه الرعب ، فلجأ إلى سيفه ، يحتمى به ، استل سيفا من السيوف الحادة ، واخذ يطارد العيون فى جنبات المنزل ، مزق الحاشيات والملابس ، حطم الصيوان ، والصناديق والأباريق .. المقاعد والأسرة .. كسر الأوانى والمرايا والمشكاوات .. لكن العيون المختلفة كانت تتكاثر حوله .. تصبب عرقا ، لهث .. أنهك .. خارت قواه ، وفتح له المرض ذراعيه ، يستقبله بشغف فى ضماته الأخيرة .. !

ولما مال فرأى أحد الخدم فوقه ... ، فتح مسرور قبضته ، وقدم للخادم (خاتم الأمير) ، تناوله الخادم من يده ودسه فى جيبه ، وفى صوت واهن أوصاه مسرور بأن يترفق بجسده ، وأن يقرأ عليه بعض من آيات القرآن الكريم ، لكن الخادم قطب جبهته ولم يخبره بأنه قد اختار خدمهُ من الحجارة الصماء ، وأنه يجهل ، كيف يفتح مغاليق قلبه. فمن ذا الذى يطيق العيش مع شخص صناعته الموت .. إلا إذا قُدّ من صخر ..

وعندما اغمض مسرور عينيه إلى الأبد .. كان الخادم يتأمل الخاتم الذهبى ذا الماسه المتألقة ، ويسأل نفسه :. كم من الدنانير يأتى بها خاتم قتيلك .. يا مسرور ... ؟! "

* * * * * *

الجيران الجدد

تدريجيا، انقشع الخوف من نفس الأسطى "ابراهيم الطباع" كما تنقشع السحب عن شعاع الشمس الشتوية الواهنة. صار، عندما يستيقظ كل صباح مبكرا.. يرسل البصر عبر النافذة، التى فى "الحوش" فيرى شواهد القبور، تنتصب فى صفوف. تومئ إليه فى انحناءات خدم الفنادق الكبرى، الذين يودون نقل خضوعهم له فى شئ من الترفع !

وصار "الأسطى ابراهيم الطباع" عندمـــا يمشـــى بيـــن الشواهد ذهابـــا وجيئة. لم يعد يفكر فى ذلك المصير الذى ينتظر كل حـــى، والى أى شئ سيصير ذلك الكائن، الذى يمـــلأ الدنيـــا ضجيجا عاليا وآمالا زائفة..!

كان فى البداية، يتعظ فى رهبة.. صار- بمرور الوقت- متآلفا مع التراب والرمل والبقايا- التى يعـــثر عليهـــا، فيعيـــد دفنها.. حتـــى تلك الروائح التى تتنفسها القبور الحديثة مختلطة برائحـــة الغبار والكلس. والحجارة البالية. وذلك "الحوش القديم" الذى شارك فيه عظام "علـــى بيه زلط !"

وتمكن الأسطى ابراهيم مع بقايا مـــن نشـــاط زوجتـــه، وحيويتها، من أن ينظف المكان من الحشـــرات ويقضيـــا علـــى الخنافس والأبراص والسحالى.. والنمل الأسود الكبير..

وبمرور الوقت بهتت ذكرى صفوف المنازل التى تتزاحم تحتها المقاهى والدكاكين بضجيجهـــا واضواءها، والتى تتفـــرع من الميدان الصاخب. وقد صار المكان -هنا- أيضا، مزدحمـــا بالأحياء والأمـــوات. وتقلصت رهبة المقابر التى كـــانت يومـــا تملأه بالرهبة فتزلزل كيانه. ليتنفس الخوف والهلع، عندما كان فى ذهنه، تتطلاطم "الحكايات" عن ذلك العالم السفلى.. وهو الذى كان يسمع بأذنه الأصوات الغامضة، التى تتناهى إليه- اذا مـــا عاد من عمله فى المساء- ومشىعلى مدق القبـــور القديمـــة..

إلــى منزله (الجديد).. يكـــاد يــرى شـــواهد المقـــابر تتخاطب، تتجمع وتتفرق. والقباب التى اقيمت على بعض القبور تميز ها عن بعض مصاطب الفقراء الواطئة تتبدى لــــه وكأنهـــا رؤوس غيلان ضبابية تتهيأ للانقضاض عليه.

كان الرعب يلتف على ساقيه، فتتعثر خطواتـــه، ويكـــاد ينكفئ على وجهه. يخشى أن يتساند على حواف القبور، حتى لا تضطرب شواهدها.. وبعضها ينتهى بطربوش من الملاط لونـــوه باللون الأحمر الطوبى.. يكـــاد يشـــاهد وجـــه صاحبـــه تحـــت الطربوش.. ويسمع همساته، والهلع يعقد لسانه فلا يجيب!

*   *   *

الوضع الذى قبله الأسطى ابراهيم مؤقتا.. بمرور الوقت اكتسب طابع الإستمرار.. وحدث التكيف..

ولفترة طويلة، كانت الحارة التى غادرها لم تزل ترافقه بضجتهـــا وعاداتها، وتجمعات سكان البيـــوت المزدحمـــة مـــع روائح الطعام التى تتسلل إلى خياشيمه، متآلفـــــة مـــع لغتهـــم، وانفجاراتهم النفسية.. والمنزل القديم الذى تـــزوج ورزق فيـــه بابنته -بهجة- كان قريبا من عمله فى المطبعة. شاء لـــــه.. أن يفصل عنه، بعملية جراحية مؤلمـــــة. إذ تهـــدم البيـــت القديـــم تدريجيا، وكان لابد من تنكيسه.. وكتبوا أسماء الســـــكان علـــى

وعد بأن "الحى" سيدبر لهم مكانا فـــى المساكن الشعبية المزمع بنائها.

وكانت إقامته فى حوش المقابر- لفترة محـــدودة لـــن تطول بأى حال من الأحوال- كما وعـــده الســـادة المســـئولون. واعتبر، "السكن" فى الحوش، أفضل من خيمة الإيـــواء.. لكـــن الأيام مرت تباعا.. وإبنته (بهجة) كبرت، وزوجته، كفت عــــن تكرار الشكوى وتحريضه، على أن يتحرك، ولا يهدأ، من إثـــارة مشكلته!

* * *

قال له كاتب السجل المدنى وهو يحدق فى بطاقته العائلية:

- بتقول انك ساكن فى مقبرة على بيه زلط؟

هز رأسة موافقا ومتأسيا على نفسه:

لكن الكاتب كان ينظر له فى حسد ويقول:

- يا بختك يا عم.. أنا أعرف مقبرة على بيه زلط.. حوش واسع يرد الروح.. ويوجد به غرفتين واسعتين.. أنا وإبن عمى نقيـــم فى مقبرة حسين بيه الأرناؤطى.. فى نفـــس الصـــــف علـــــى اليمين.

واسرع (الكاتب) بحكم الجـــيرة، يســـهل لـــه مهمتـــه، ويعرض عليه أن يشرب شايا.. وقبل أن ينصرف كان يشكو له:

- المشكلة عندنا.. أن لحسين الأرناؤطى بقايا أحفاد، عواجيز يحضرون في المناسبات، والأعياد. لزيادة جدهم الكبير.. ويقلقون راحتنا.. وانا وابن عمى وأولادنا نضطر الى إخلاء المكان لهم وتحملهم.. ومنهم من يهددنا بمغادرة المكان.. كما انهم يريدون منا عدم المساس بالحجرة الواسعة التى بها المقبرة.

ويعض الكاتب على شفته متحسرا وهو يقول:

- حظك حلو يا استاذ.. مع إننا سبقناك.. لكننا لم نكن نعرف أن على بيه زلط أصبح مقطوعا من شجرة.. كان ضرورى أن الواحد يسأل ويتطقس.. لكن ماذا تقول.. ما يقع إلا الشاطر.. أو قل أنك مبخت يا سى ابراهيم.

والأسطى إبراهيم وجد نفسه يقرأ فى سره شيئا من القرآن، ليقيه حسد الحاسدين. فالمقابر ارتفعت خلواتها. ولم يعد يخجل من إعطاء عنوانه لمن يطلبه.. حتى ملف المدرسة الثانوية لإبنته بهجة. حدد فيه "السور الجنوبى.. حوش على بيه زلط" كما أن بهجة لم تعد تخجل من ذكر العنوان.. بعد أن تبخر الأمل فى الحصول على الشقة الموعودة.. وماتت القضية، التى اشترك سكان البيت المنكس فى جمع أتعابها، وتسليمه إلى أحد المحامين الذى كان يظهر فى طرقات المحكمة، وليس له مكان ثابت. إذ تعددت التأجيلات، وتعددت المطالبه منه بمزيد من

النفقات، عن الدمغات والمذكرات والرسوم.. فتقاعس البعض، ونهج الباقون نهجهم، وقد شعر بأن المحامى الجوال يستظلهم.

والأيام خلصت الأسطى ابراهيم من ذكريات كثيرة. ومن الشوق إلى الأصحاب والخلان وقعدة المقهى. والمشاغل لم تعد تلقى فى طريقه إلا من يكون دائما على عجل.. فلا يستطيع معه إشعال الشوق القديم. حتى ضعف ارتباطه بالحياة التى كان يحياها فى الحارة المزدحمة المفضية إلى شارع يضج بالحركة.. ووجد فى مسكنه الجديد.. الهدوء الذى ينشده من تجاوز الخمسين- فهو اذا ما عاد من عمله.. استمع الى الراديو. أو قرأ الصحف- القديمة مثل الجديدة- لا يدقق كثيرا- وأحيانا يندمج فى كتاب من الكتب التى يحصل عليها من المطبعة على سبيل الإهداء..

والمطبعة أصابها الركود، فكان أشبه بالمتعطل، لذا فان تسوية معاشه المبكر لم يجعله يشعر بأنه انتقل إلى فراغ.. انها نفس الحالة. وربما وجد الوقت الذى يمضيه فى مؤانسة ابنته بهجه وهى تراجع دروسها.. أو يمكث بالقرب منها يشجعها ويراقبها. فإن زوجته، أم بهجة، صار فى استطاعتها أن تنام عشرين ساعة متواصلة. وفى ظنه أن ذلك بسبب كسل الكبد الذى اعتراها فى السنوات الأخيرة. يداويها بالأعشاب، حتى لا يفتح على نفسه فاتوحة الأطباء واسعارهم الغالية، وما يكتبونه

من ادويه غالية أيضا.. يعـرف ان بعـض الوكـلاء يروجـون لأدويـة بعينها..

وفي بعض الأحيان يقوم بـتزويق الحـوش، ويستغل رخـام المقبـرة في صنع سرير إضافي، تحسبا للطوارئ، إذا ما فكـر أحد الأقارب في زيارته والمبيت عنده.

وضـع فـوق القبـر مرتبـة اسـفنج، وغطـاهـا بالقمـاش الكريتون الملون، والمنسدل حولها. واذا رأته أم بهجة يفعل ذلك تقول له:

- سرير ومرتبه يا أبو بهجة.. وهل تعتقد أن أحدهم سيفكر في زيارتنا؟. واذا حدث.. هل تعتقد أنه سينام معنا في المقبرة. نحن قعدنا سنيناً حتى زالت الرهبة من نفوسنا.. !

يقول لها: يا أم بهجة، الإحتياط واجب.

ثم يشير الى بهجة التى صارت "عروس تنادى الخطاب" ويقول:

- أنت ناسيه أن عندنا عروس.. اذا ما طـرق بابنـا طـالب يدها.. خذى عندك.. سيأتى مع أهله.. وسنحتاج إلى..

وأم بهجة التى تغمض عينيها وتنام.. عقلهـا يهـدر.. وهـى تتأسى على بهجة، التى لو كانت فى الحارة لبليت أحذية شـباب الحارة فى الطلوع والنزول على سلالم بيتهم. وتتأسـى علـى حال أبو بهجة، وقد تفرق عنه أصحابه القدامى. والـذى كـان يمضى معهم سهراته، او يأتون إلية فى البيت. لـم يعـد أبـو

بهجة يذكر أحدا منهم أمامها.. وقد صار مغرما بالحديث مع شواهد القبور.. أو عن الشخصيات التى تحتويها القبور- وكثيرا ما يشاهد وهو يقرأ قطع الرخام، وما حفر عليها.. يحفظ الأسماء والتواريخ.. وقد يمضى أمسية فى الحديث عن هؤلاء الأموات وعائلاتهم

"الحاجة نفيسه.. وقبرها فى الصف الثالث على الشمال، كانت سيدة جميلة وعايقه. لها ثلاث أولاد. ابنتها الكبيرة تشبهها. تلك التى تأتى لزيارتها مع اولادها.. لها ابن ضابط فى الجيش استشهد فى حرب اكتوبر.. والثانى مدرس.. وصل الى أن يكون مدير مدرسة ثانوى.. ومات بأزمة قلبية، ودفن بجانبها.. ترك بنتين وولد.. زوجتة كانت تزوره حتى تزوجت. فلم تعد تأتى.. اولادها على حضام معها.. و"
وتزوم أم بهجة من حين لآخر.. تعنى أنها تسمعه، وإن كانت قد أغلقت على ذهنها وانشغلت بهواجسها.

"أما التربة التى على الصف المقابل. تحت الشجرة الكبيرة.. فهى تربة واحد مستشار عظيم.. اولاده يحضرون لزيارته راكبين سيارة مرسيدس.. ولده الكبير مدير عام فى الإسكان.. هو الذى حكم بالإعدام على...

وتفز أم بهجة.. تخلص نفسها من النوم، وتعتدل لتتعلق فى آخر ما جاء فى كلام زوجها.

مدير عام بالإسكان"

- ايوه يا ابو بهجة.. قلت "مدير عام فى الإسكان".. كلمـــه يـــا خويا.. يمكن..

لكن أبو بهجة يواصل كلامه عن الصحاب الجدد.. ما جمعه مــن معلومات عنهم. غير مبال بتلك المقاطعة، والجرى وراء الأوهام، وأم بهجة فنجلت عينها، ونشطت فجـــأة، تحـــاول أن توقفـــه وتعيده إلى "مدير عام فى الإسكان"

- ياليت يا ابو بهجة.. وأنت لن تخسر شـــيئا.. لعــل وعســى يكـــون رجل صالح.. يشوف لنا سكن.. بص يـــا أبـــو بهجـــة.. البنت كبرت. وخرطها خراط البنات. لكن الخطاب لن يأتوا الينـــا فـــى الحوش.. و.

والأسطى ابراهيم يستطرد غير ملتفت إلى ما تقوله زوجته:

"والقبر ابو ثلاث أدوار.. مصنوع من الرخام الايطـــالى الملون.. كان لرجل عظيم أيضا.. عاش فى الفـــترة مـــن عـــام ١٨٨٢ حتى ١٩٥٦.. اكبر تـــاجر جلـــود.. اســـمه.. وأولاده.. والذى يزورنه.. هم......

وتعود أم بهجة إلى تناومها.. وقد تستغرق بالفعل فـــى النوم.. يغلبها النعاس.. وتنتظم انفاسها.. وبعد وقت قد يطول.. يكف أبو بهجة عن الكلام، ولكنه لا يكف عن التفكير فى الجيران والأصدقاء الجدد، مستهديا بأن.. "النبى أوصى على سابع جار".

واحد اسمه "شيخو"

[.. واحد مستقوى القلب. اسمه الثلاثى سعد عبد العال الديب ولما تأسلم على (مودة) التسعينيات، أطلـــق عليـــه أهـــل "الحتة" اسم (شيخو)، للفصل بينه وبين الشـــيخ عبـــد الحميـــد الأزهرى- حامل كلام الله]

تقدم اسماعيل محمود إلى الباب الزجاجى الكبير، وهـــو فى نفس الحالة من إنعدام الوزن، تلك الحالة التى لازمتـــه منـــذ خروجه من منزله فى رفقة شقيقه زكريا. وصوت المكبر يلقـــى بالبيانات عـــن موعد قيام الطائرات من مطار القاهرة، باللغتين الحيتين، مـــع اللغة العربية.. !

وطائرته لاتزال تحط على أرض المطار كفرخ الرخ الاسطورى. وطنين المودعين. والنظرات الوسنانة، تتبادلها العيون المعبأة بالشوق الحزين. والأيدى تمسك بالأوراق وجوازات السفر فى حالة تقع وسطا بين الحقيقة والخيال.. حتى أنه نسى شقيقه الأكبر زكريا وماعاد يهتم بما يقوله.. وهو يقف بجانبه حاملا حقيبة "الهاند باج" ولم يفرغ بعد من ذكر القائمة الطويلة من مطالب ورغبات العائلة.. فى الأشياء التى سيكون علية إرسالها، وإحضارها من هناك. صوت زكريا كان يأتيه من بعيد مختلطا بأزيز وطنين يدور فى الصالة.. ويتحدى لافتات تطالب "الهدوء من فضلك"

* * *

فى المطار شعر اسماعيل محمود- وهو الذى حصل على بكالوريوس الهندسة، وعمل فى مكتب هندسى خاص لأربعة أعوام- بأنه جاء إلى "المطار" مساقا ومرغما. وأفاق على أصابع شقيقه تمسك بذراعيه، وتضغط عليه. التفت إلى عينى زكريا المضعضعتين فوجدهما رطبتين.. تذكر أنه لم يأت معه بكيس المناديل الورقية- وتحسس المنديل القماش الذى يحافظ على استخدامه.. فهدأ. !

سمع شقيقه زكريا يقول:

- لاتنس ياباشمهندس.. شقيقتك أم محيي.. سريعة الغضـــب.. تطلب منك ٤٥متراً من الستائر لشوار أبنتها.. أرجو أن تتذكـــر هذا، وتجعله أولى الطلبات.. ترسلهم، أو تـــأتي بهـــم فـــي أول اجازة- بإذن الله.. !

سكت قليلا ثم عاد زكريا يقول:

- على العموم أنا كتبت لك كل شئ في الكشف.. وفـــي إمكـــانك التصرف بما يتلاءم وإمكانيـــاتك.. "الســـعودية" فيهـــا حاجـــات تهبـــل.. ربنا يوفقك !

* * *

.. يكتنف اسماعيل.. شعور الهارب من خطـــر يطـــارده واحساس بالتحدى يغور، ويعلو عليه رضوخ لطلـــب الســـلامة.

فيكون مطيعا لمن يدفعونه بعيدا. مع شكل من المقاومة الشكلية لخطر يهدد حياته بالفعل. خطر له صورة "سعد الديب"، عمـــلاق في جلباب أبيض، وعلى رأسه عمامـــة ذات زؤابـــة.. ولحيـــة كبيـــرة، اضافت على ملامحه.. شيئا من المهابة المكنونة فـــي النفس لرجال الدين، مع شيئ من القلق. لمن يعرفـــون تاريخـــه جيداً.

سعد الديب واحد.. لم يكن أكثر من واحد، لايستقر فـــي عمل.. له طباع من يشعرون بقوتهم، ولايرضون بنصيبهم مـــن

الحياة.. يطمعون فى المزيد الذى لاتأتى به القوة، مهمـــا كـــان الشخص الواحد.. يمتلكها.

ذات يوم، تدرب على أن يكون رافع أثقـــال- فاكتســب البــدن المدكوك، لكن عمله فى شركة الغزل والنســيج لــم يؤهلـــه، إلا لبطولات وهمية، فى النوادى الشـــعبية والســـاحة الشـــعبية. وأهـــل الحى صفقوا له، وهو يرفع "الحديد". وعندمـــا تصـــادم مـــع رؤساء الشركة الذين لـــم يقـــدروا الميدليـــة البرونزيـــة، وعاملوه كعامل عتالة. ترك العمل، وغـــيرت أخلاقـــه البطالـــة. فجـــأة أطلق "الديـــب" لحيتـــه، وارتـــدى الجلابيـــب البيضـــاء والعمامة.. وصار يحث الناس فى "الحتة" على أداء الصلوات فى مواعيدها.. !

وقال الناس: ربنا هدى "الديب" الشقى، كى يوظف قوته البدنيـــة فى فعل الخير.. واطلقوا عليه اســـم (شيخو) للتفريق بينه وبين الشيخ عبد الحميد الأزهرى، حامل كـــلام اللـــه. لكـــن ظهـــور جماعـــة له، يرتدون نفس الزى، ويتبعونـــه. معظمهـــم كـــانوا أشقياء، وفاسدون ولهم تاريخ غير مشرف فى البلطجة والتسلط. جعل الناس فى الحتة، يستشعرون سطوته، ويتعاملون معه فـــى حرص وشئ من النفاق !

لكن"شيخو" صار يطلب من تجار المنطقة أموالا.. تـــارة لبنـــاء المسجد الخاص المقتطع من الوسعاية- وقـــد جعلـــه مخصصـــا

لجماعته. وتارة. يطلب الزكاة- ليقوم مع جماعته بتوزيعها على الفقراء بمعرفتـــه. ومـــن كـــان يرفـض أو يتلكـأ. صــــاروا يتوعدونـــه. ويتربصون به.. وقد أرغم بعــض التجار على عدم استخدام "الرصيف" لعرض بضاعتهم عليـــه. علـــى أســـاس أن الرصيف من حق المارة. وأرغم صاحب المقهـــى علـــى إذاعـــة القرآن الكريم.. ولاشئ غيره، يبث مـــن المســـجل، ولا حتـــى أغانى أم كلثوم.. وفرضوا على مخبز "عم جرجس" أن يخصص بابا للسيدات.. وبابا للرجال عند بيع الخـــبز.. وأن يدفـــع لهـــم "الجزية". فانقسم الناس فى الحى إلى فريقين. فريق يؤيد الديب. وفريق يرى أن هذا ليس من اختصاصـــه، ومـــن الضـــرورى وجود من يردعه.

لكن "شيخو" لم يكن وحده. لقد صار له أنصـــار ومســـتفيدون هناك من ينبرى ليقول:

- ياجماعة سيبوه يلقط رزقه من التجار..

* * *

والناس- الذين لايطولهم من "شيخو" أذى، كـــانوا فـــى حياد. ويرون فيما يحدث أمامهم من تحولات. وكأن ذلك يحـــدث فى عالم آخر غير عـــالمهم. يتســـلون بمـــا يجـــرى فيـــه.. أو يتجاهلونه طالباً للسلامة..

لكن "الديب" صار موضوعا يلوكونه. ويتخصص البعض في إذاعة نشرة أخبار عن "الديب" وتصرفاته واستفحل شأن الديب شيخو. عندما انضم إليه عدد من الشباب المتعطل، للإستفاده مما يحصل عليه من أموال التجار والمقتدرين. وبعض أصحاب النفوذ، ومن يخططون لإنتخابات مجلس المدينة، أو مجلس الشعب.

البعض يتصل به في الخفاء ويعاون الديب وجماعته- للإستفادة من تجمعهم. ويسهلون له مشروع بناء مسجده.. الذى يقام على أرض الحكومة. بل يزودونه بالمال.. ومواد البناء.. والتبرعات. على أمل أن تصير جماعة "شيخو" من أعوانهم !

لكن "الديب شيخو" لم يكن يرضخ لأحد. فهو لا يتورع أن يفضح من أعطاه فى السر.. ويعلن عنه- حتى يستمر فى تحصيل التبرعات من تجار السوق المجاور.. فلا يعطلون- "الفردة" التى صارت مقررة.. ولها موعد ثابت.

وحتى لايتناساه "أهل الحتة".. كان يصدر فتاويه "القراقوشية".. ويقوم أعوانه بالإشراف على تنفيذها.. اذ أنه منع الباعة الجائلين من المرور فى شوارع الحتة، إذا ما كانوا يبيعون الباذنجان الطويل، أبيض أو أسود- وكذلك الكوسة. ولما سألوه عن السبب- قال- كده وخلاص" ورجل من رجاله

فسر- (الحكمة) للناس فى منع النساء من التقليب فى الباذنجان الطويل.. والكوسة الطويلة.. بضرورة ألا تمسك السيدات والبنات هذه الأصناف بيديها، لأن فى ذلك "فتنة".. والفتنة حرام. !

* * *

وانقسم الناس كالعادة- حول "أحكام شيخو" واتخذوها مادة لأحاديثهم فى المقاهى، وفى البيوت.. مما لفت نظر السيدات والبنات إلى التشابه الخطير الكامن فى الباذنجان الطويل.. والكوسة الطويلة.. !

وبات البعض يثق فى- أحكام شيخو- لإستمالته إلى فعل "الخير" وإمكانية توجيهه مع جماعته، إلى نشر تعاليم الدين الحنيف الحق- بين الشباب المتعطل.. ولصد البلاوى التى تلقى بها الحضارة الحديثة، على أدمغة الناس، من خلال التلفاز والسينما والصحف.. وتلك النوافذ التى تطل على الفساد.!!

والأمر الفكه، الذى كان يسلى البعض.. تحول تدريجيا، إلى مآسى وروايات، عندما تنقبت فى الحتة.. بعض السيدات، واللاتى فاتهن قطار الزواج- وقام شيخو، الذى يادوب يفك الخط، بتزويج عدد منهن إلى أعوانه.. وفرض سكناهم فى بيوت الحتة بالقوة، إذ علم أن هناك أماكن خالية ومحجوزة من قبل

الملاك لأولادهم الصغار، بسبب ضعــف الإيجــارات القديمــة- أوالخوف من الإتهام بتقاضى خنوات..

وعدد الذين تزوجوا فى مسجد شيخو- لم يكن كبــيرا.. وعــدد الذين ارغموا على تسكينهم لم يسببوا مشكلة أو صراعا. وتــم ترضية أصحاب الشقق الخالية، ببعض التعويضات التى دفعهــا الميسرون من التجار.. وأصر الشيخ عبد الحميد- بــأن يعقـد مأذون الحى، على تلك الزيجات- بعقود رسمية- حتى لاتضيــع حقوق الأبناء مستقبلا.. مع عدم تحريمه لطريقة الــزواج فــى "مسجد شيخو" واكتفى بأن أعلن أن ذلك حفاظا علــى الحقــوق فــى الإرث وما أشبه. !!

وفى الأعوام الأخيرة.. تحول "الديب" شيخو، إلى حاكم للحتــة.. وأعوانه، هم الحكام.. ولضعف فى الناس، استفحل أمر "الديــب المسمى "شيخو"

* * *

..صار (شيخو) يمد نفوذه تدريجيا من شارع إلى شارع ومن حارة إلى حارة. وأعوانه يزدادون.. "والمســجد بتــاعهم" إشارة إلى المبنى المقطع من الوسعاية.. صار مكاناً لتجمعهــم- ومنــه يشنون الهجوم علــى- غــير المعضديــن والمســاندين ويتهمونهم بالكفر والإلحاد.

وبات واضحا لمن لم ينضم إلى جماعة شيخو من الشباب. وغيرهم، انهم قد يتعرضون للأذى- وهو ما حدث بالفعل مع الحاج عبد اللطيف- الذى يقرأ جريدة الأهرام بانتظام، ويطلع على بعض الكتب. وعاش شبابه فى الفترة الناصرية.. فكان جريئا- ولم يتهيب بأن يحذر أهل الحتة، من تفاقم نفوذ "الديب" الذى يتمظهر بالدين، والدين من تصرفاته براء.. والحاج عبد اللطيف رأى أن مسجد الأوقاف لابد وأن يظل عامرا بالمصلين.. وشيخه عبد الحميد خريج الأزهر الشريف يوعظ الناس بالحسنى. خاصة وأن "الديب شيخو" صار يفرض على الناس الإتاوات.. ذلك عندما أصر أن يصلى الناس فى العيد.. بالوسعاية.. التى كانت مخصصة كحديقة للحى فاقتطع منها مسجده.. ووصف الحاج عبد اللطيف (الديب) وعصابته بأنها عودة لعصر "الفتوات" الذين يتحدون القانون والحكومة.

ولعل آراء الحاج عبد اللطيف وجدت عند البعض صدى، ولكن البعض الآخر كان يحذره من شطط الديب، وعصابته، عندما صاروا يختبرون قوتهم ويخبؤن فى أرديتهم السيوف والخناجر.. فآثر البعض توجه النصح إلى الحاج عبد اللطيف بواسطة أولاده "بأن يكف والدهم عن إعلان آراءه حتى يتقى شرهم" وأظهروا للحاج عبد اللطيف وأولاده- بأن جماعة الديب يضربون

ضربتهم أولا.. ثم يتصدى أحدهم لحمل التبعات- وذلـــك مــــن أفعال المجرمين السفلة.

ولعل آراء الحاج عبد اللطيف "عم زكريـا واســماعيل" وصلــت إلــى الديب- فلعنوه فى خطبتهم ،مسجدهم- واتهموه بعـــدة تهم.. ولم يخفوا اسمه أو كنيته.. فما كان من الحاج عبد اللطيف إلا أن يلجأإلى قســم البوليس.. ويقدم اتهامــا.. يتهـــم فيـــه (سعد الديب) وعصابته فى بلاغ رسمى.. بأنهم يســـيؤن إليـــه. ويتوعدون بالإنتقام منه ومن أولاده.!

وإذا ما تم إستدعاء- سعد الديب، ومواجهته بهذه الاتهامـــات.. انكرها. وأشاد بمكانة الحـــاج عبـد اللطيــف واخلاقــه.. وان لاخـــلاف بينهما يستدعى ذلك. ولم يحدث أن واجهه.. أو كــــان يوما فى نزاع مباشر معه.. وذلك بشهادة الشهود.

وكالعادة، تدخل- تجار الحى وأصحاب النفـــوذ- فـــى الحتـــة- وحفظت (المذكرة) وبدا أن الحاج عبد اللطيف، كان يعـــبر عـــن مخاوف مستقبلية- ولم تحدث واقعة بعينهـــا- وقـــام الضـــابط بتحذير الطرفين- بأنه لايريد (دوشة) فى الحتة، وإلا كـــان لـــه شأن آخر معهما..!

وفى نفس المساء.. ذهب (سعد الديب شيخو) لبيت الحاج عبـــد اللطيف كى يقدم له.. إعتذارا.. ويوضح له- احترامـــه الشـــديد لأمثاله. وأنه غير المقصــــود بمـــا يطلقـــه خطيـــب مســـجده،

والنصوص كثيرون. لماذا يأخذ المغنى على نفسه؟ وهو يعـــرف مقداره جيدا، وأقسم بالله العظيم، أنه يفعل الخــــير مـــن أجـــل الخير.. وأمكنه أن يبطل عمل الشر والشيطان فى نفوس كـــانت ضالة. وعليه أن يساعده على ذلك !!

ومصادفة شاهد سعد الديب- إبنة الحاج عبد اللطيـــف التـــى فتحت له الباب. ووقفت قدامه. بنت العشرين ربيعا فى نضجهـــا وجمالها المصون. [نورا].. التى نست نفسها، وهى تتطلع لهـــذا الشخص الذى صار حديث الناس. وقد أطلـــق لحيتـــه، وخفـــف شاربه؛ والملابس البيضاء مع العمامة، اضفت عليه نوعا مـــن الورع.

وسعد الديب، عملا بالنظرة الأولى التى لم يحدد طولها.. تـــأمل البنت، وأخذه جمالها. وكأنه عثر على كنز عظيم يخفيه أحدهـــم بعيدا عن "مطامعه"

ولأن الحاج عبد اللطيف- نكاية فى ادعاءات الديـــب وفتاويـــه- يؤمن بالحجاب الداخلى، وليس الخارجى. فقد جعل نـــورا تقـــدم المشروب إلى ضيفه بملابس البيت- وقد قبل اعتذار (الديـــب).. مع تحذيره، بأن للبلد حكومة.. ودولة.. ولن يقبل قيام دولة فى الوسعاية. كما أخذ الحاج عبد اللطيف يتحدث عن أزمنة الضعف والقوة.. بينما سعد الديب كان مشغولاً ومتشوقاً ويود لو شـــاهد نورا مرة أخرى. فإذا بها تـــأتى وتتلكـــأ.. وتحمـــل الصينيـــة

الفارغة وتحملق فيه.. بالعيون التى تزدحم بالاسئلة والدهشـــة والديب يبسمل ويحوقل ويتمنى منَ صميم فؤاد لو ان الحاج عبد اللطيف- أحال العداء له إلى حب- طبقا للمثل السائد. فيبتســـم كثيرا، ويعتذر كثيرا، ويرفع الحاج عبد اللطيف إلى مصاف الآباء والجدود وأولياء الله الصالحين..!

* * *

وفى اليوم التالى، جاء (شيخو) سعد الديـــب، بصحبـة ثلاثة من التجار. جلس على المقهى على غير العادة.. وارســـل التجار الثلاثة الى بيت الحاج عبد اللطيف.. ليفاتحوه فى رغبـــة "شيخو" للإقتران بابنته نورا.. ومستعد أن يشـــترى لهـا شـــقة تمليك يكتبها باسمها.. ويدفع مهرا كبــــيرا. يغطـــى مصـــاريف الجهـــاز والفرش. وأنه يرغب أن يأخذها بشنطة هدومها فقط.. ومستعد لأى طلبات إضافيه. !!

وكان رد الحاج عبد اللطيف فى صيغة سؤال وهــــو فـــى حالـــة استنكار:

- انا، ازوج نورا.. للولد الصايع ده؟

ومع أن التجار الثلاثة جاءوا إلى بيت الحاج عبد اللطيف غـــير مقتنعين تماما بمـــا ساقهم الديـــب لعرضـــه- إلا انهـــم أبلغـــوا الحـــاج عبد اللطيف- بأن يفكر مليا فى المسألة، لأن "الديـــب"

صرح لهم- بأن نورا.. صارت خـلاص. مـن حريمـه، ولـن يتزوجها أحد غيره.. وقال الحاج عبد اللطيف هائجا:

- نهار ابوه اسود !

ولم يعقب الوسطاء على هذا التصريح الإنفعالى، واستمروا فـى تحذير الحاج عبد اللطيف، وكان واضحا انهـم يشـيرون الـى عصابة الديب، وسيوفها، وخناجرها، وإدعاء انهم ضد الديـب.. ولكنهم بينوا له بأن فى رفضه لهذا الطلب.. اعـلان للحـرب وانت يا حاج عبد اللطيف.. "لمؤاخذه يعنى.. لا تفهم مـا يـدور حولك.. جيداً.. لا زلت غارقا فى الحلـم القديـم.. وفـاكر أن المطب قد يعوق المسيرة بعض الوقت.. وفى ظنـك الواهـم، أن الأمور ستعود إلى قديمه.. لكن هيهات!!

ولم يكن الحاج عبد اللطيف بـالرجل السـاذج الـذى لا يقـدر المسائل.. لكنه كان عنيدا.. وكان لايرى فى الزوج الذى يتقـدم لإبنته إلا- حتة صايع لابس جلابيـة بيضـاء، وفـارض علـى القادرين.. فردة.. لن تدوم. !!

والوسطاء لم يذكروا لشيخو الديب.. مـا دار حقيقـة، معهـم، واكتفوا بأن قالوا له "عرضنا الأمر على أبيها- وطلب كالعـادة، وقتا مناسباً ليفكر ويبحـث.. وسـوف يـرد علينـا- بـالكثير الإسـبوع القادم."

واحتضنهم الديب واحدا.. واحدا.. وكـــان قـــد تعطـــر برائحـــة المسك.. وعندما افلتهم قال لهم:

- أنتم الثلاثة.. ستكونوا شهودى فى عقد الزواج، وسوف أنفذ ما عرضتموه على عمى "عبد اللطيف" وأكثر. !

* * *

لمجابهة قوة الديب. استعان الحاج عبد اللطيف بـــأفراد العائلة، جمعهم، وعرض عليهم "الورطة" التى هو فيهـــا وفـــى مقدمة من حضروا.. كان زكريا.. موظف البريد، والباشمهندس اسماعيل- وهما أولاد أخيه- كما حضر الإجتماع لطفى "مـــدرس الإعدادى" وشقيقه حسين "الموظف فـــى الصحـــة" وهمـــا أولاد شقيقته إحسان.

وبعد المداولات التى اغاظتهم جميعا. انبرى حسين شعبان ابـــن عمة نورا.. وطلب يدها- ليكون اعلان خطوبتـــه لهـــا، فـــاصلا ليوقف ما يثيره (الديب) بواسطة أعوانه. بأنه (خـــلاص) قـــرأ الفاتحةعلى (نورا) بنت الحاج عبد اللطيف.

وفى حفل عائلى يتصل بمكبر صوت "هارلى" اذيعت ليلة الخطوبة التى حضرها لفيف من المدرسين والمدرسات- وبعضهم بيـــده الكتب- إذ كانوا فى دروس خصوصية- وهنأوا العروس، حاملة دبلوم التجارة بإلقاء الكلمـــات فـــى الميكرفـــون، وتخلـــل ذلـــك

الزغاريد، والموسيقى، والأغانى المسجله، وبالذات أغنية (ياكيدهم) لمحرم فؤاد.

وسعد الديب- للمرة الثانية منذ وقت طويل. يجلس على المقهى- ولما سأله الحاج رفاعى صاحب المقهى عما يحدث.. وهو الذى جعل خطيب مسجده ينوه بخطبته لنورا.. بادر، وقال:

- كل شئ قسمة ونصيب ياحاج رفاعى.. أنا كان نفسى أناسب رجل محترم مثل الحاج عبد اللطيف.. لكنها مشيئة الله سبحانه.. امرأة تتزوجها.. 'يكتب اسمها معك فى لوحك المحفوظ.. !

والحاج رفاعى اعجبه كلام الديب شيخو. وقال "ونعمة بالله" وأصر أن طلبات سعد شيخو.. تكون على حسابه، وغالى فى الترحيب به. واستغرق سعد شيخو فى شرب القهوة، وتسبيل عينيه، سارحا فى حالة تهدج.

ولم يمض على خطوبة حسين شعبان.. خطيب نورا عبد اللطيف عشرة أيام، إلا وتعرض لحادث.. إذ صدمته سيارة طائشة بالقرب من المدرسة الإعدادية التى يعمل بها.. والإصابات الخطيرة أدت إلى وفاته، متأثرا بجراحه. والسيارة فرت هاربة، والذى نقل رقمها أخطأ فى نقل عدة أرقام- مما

جعل الكشف عن السيارة يؤدى إلى.. سيارة زوجة مأمور قسم الرمل.

والتى كانت فى زيارة لأهلها فى الصعيد.. !

وصاح مكبر الصوت فى مسجد شيخو.. "بركاتك يا سيدنا"

وإنتظر الديب إنقضاء- الأربعين- وعاد يطلب يد نورا .. وأرسل للحاج عبد اللطيف من يطلبها له منه .

فسارع لطفي شعبان .. شقيق حسين، وأعلن خطوبته على نورا .. ولكن حفل الخطوبة كان كحفل تأبين لشقيقه، غلبت عليه الأحاديث الدينية، وقراءة القرآن الكريم- تلك السور التى تتوعد الضالين بالعذاب الشديد .. في الدنيا و الآخرة.

كان ذلك قد تم في نهاية الشتاء . وفي منتصف الصيف لنفس العالم.. بينما لطفي وأمه إحسان مع خطيبته نورا، وعدد من أقاربهما علي شاطيء البحر يستظلون بثلاث شماسي متقاربة.. حدث هرج بشاطئ جليم.

غريق.. غريق.. غريق.. وسحبوا الغريق.. كان الغريق لطفي شعبان، الذي لا يجيد السباحة، فلا يتوغل في البحر.

وبعد فترة الحداد .. سعد شيخو يتقدم لخطبة نورا للمرة الثالثة .

وكانت ملامحه وحركاته وسكناته .. تنبيء بانه متمسك بنورا وينتظرها .. وأنه يريد الإقتران بها رغم الإشاعات التي أشيعت حول نورا.. بأنها صارت شئوماً علي الذين يقتربون منها

ويخطبونها.. يموتون في ظروف غامضة.. ومأساة عمتها إحسان لا تطاق.. ولا أحد يتجرأ ويربط بين الديب وعصابته ومقتل حسين و لطفي خلال عام ونصف .

والحاج عبد اللطيف لم يكن من السذاجة ليستبعد الديب شيخو ويعتبر- أن ما يتم.. هو.. بركه من بركاته- وعقاب يلحق به لأنه رفض يده الممدودة بالحلال !

وأمام إلحاح "سعد شيخو" والرسل الذين يرسلهم- فيبلغون رسائله. ولكنهم لا يبلغونه حقيقة الردود عليها.. كان الحاج عبد اللطيف على وشك التسليم له والإنهيار أمامه. فجأة عرض إسماعيل على عمه- بأن يعلن خطبته على نورا..

واعتبار ماحدث لأولاد عمته.. قضاءاً وقدراً..

في الواقع كان المهندس إسماعيل يريد أن يتحدى الظروف التى اختلقها الديب فى الحى.. كما أن نورا- فى جمالها، عوضا له عن مؤهلها المتوسط. !

لكن إسماعيل، وجد معارضة شديدة من أمه وشقيقه الكبير زكريا، ولكل منهما أسبابه. والعم عبد اللطيف- الذى يريد أن يسد الطريق أمام الديب- مهما كانت التضحيات، قال له:

- يابشمهندس أنت قدامك المستقبل مفتوح، أريدك أن تفكر جيداً فى هذا العرض، ولا تتعجل. نورا ستتزوج آخر.. ولن يطولها "الديب" بأى حال من الأحوال.

لكن إسماعيل كان قد أصر على طلبه واخذ يتحدث عن مزايا نورا.. وهو يرجو ان تقبله، وتوجه إليها. يحثها على قبوله.. زوجا لها. ونورا شاهدت إسماعيل بعين الخيال، يموت ميتة غامضة. بادرت ورفضت تضحيته.. أخذ يعرب لها عن إعجابه. بها منذ كانت طفلة.. لكنها قالت له:

– أنا احساسى بك.. كأخ أكثر..

ولم يتراجع.. قالت له:

– هل تصدقنى إن قلت لك.. إننى معجبة بسعد الديب وأتمنى الزواج منه.!

صدم اسماعيل، لكنه اعتبرها تضع العراقيل أمامه، خوفا عليه. ودهش إذ أخذت تعدد مزايا "سعد الديب".

"جسمه الرياضى.. قوته.. امكانياته.. وسيكتب باسمى شقة تمليك.. وسيدفع مهرا كبيرا.. أريد منك ياإسماعيل.. أن تقنع والدى بالموافقة على زواجى من سعد شيخو !

وعندما دفعت فى وجه إسماعيل بهذه الأسباب.. غادر إسماعيل بيت عمه غاضبا.. وقبل عقدا كان محل تفكير.. وعزم على مغادرة البلد كلها، بحثا عن مستقبله فى الخارج.. !

* * *

– ماذا بك ياإسماعيل. أتخاف الرحيل.. أم تخشى ركوب الطائرات. فى المرة الأولى. ربما ستشعر بأزيز وطنين فى

اذنيك.. وقد تفقد شهيتك للطعام ولكن.. اذا ما استوت الطـــائرة صارت في السماء كبساط الريح.

ولم يكن إسماعيل منتبها لحديث شقيقه زكريا.. يعرف أن شقيقه يريد أن يصرف تفكيره إلى شئ بعيد حتى يرحـــل.. وزكريـــا.. ينتقل من موضوع إلى موضوع..

كان إسماعيل يود لو استطاع أن يقطع صلته بالحتـــة. وبنـــورا وبسعد الديب.. والتجار المتخاذلين الذيـــن لا تعنيهـــم النـــيران المشتعلة بعيدا عن بيوتهم.. ويظنون أنهم فـــى مـــأمن.. ولـــن يكلفهم الأمر إلا تصنع المواساة. وقليل مما يتكسبونه !

حسين شعبان يموت فى حادث سيارة.. قضاءا وقدرا.. ولطفـــى الذى يصغره.. يموت غريقا.. وثمة مـــن ربـــط بيـــن عصابـــة الديـــب، وتلك الأحداث، ولكنه لم يجرؤ علـــى الإفصـــاح، أيـــن الدليل.؟!

وإحساس إسماعيل أن الظروف القاهرة هى التى فرضت علـــى نورا.. الإختيار.. وكأنها ترغب فى وقـــف الـــنزيف، وتضحـــى بحياتها وأمنها من أجله.. وصورة مارد بشـــع الخلقـــة يعبـــث بالحقول.. يخلع الأشجار الباسقة، من جذورها، ويسمم الماشية ويحرق الأجران ويخيف الصغار.. والمـــارد البشـــع لـــه وجـــه وملامح "سعد الديب".. الذى سيدمر كـــل شـــئ أمامـــه ليحمـــل "ضحيته" ويفلت..

انتفض إسماعيل. ورأى أن سعد الديب فرد واحد. ليـــس أكـــثر مـــن واحد مستقوى..

استدار واتجه إلى باب الخروج.. والعزم يملأ قلبه.. يقتل الخوف فى نفسه..

وشقيقه زكريا، أدرك ما استقر عليه إسماعيل.. وقد تبعه يريـــد أن يوقفه.. وشاهده يلقى بنفسه بداخل سيارة أجرة تنطلق بـــه عائدا.. فلـــم يملك إلا أن يركل حقيبته- التـــى يحملهـــا- فـــى غضب!

الكاتب

* عبد الفتاح مرسى

* ليسانس آداب (تاريخ) - جامعة الاسكندرية - دبلوم عام من كلية التربية - جامعة الاسكندرية .

* عضو عامل بأتحاد كتاب مصر (١٣٦٦) .

* يقيم بالاسكندرية ت : ٥٤٨٨١٥٢

كتب صدرت للمؤلف

* راوية « على حافة النهار » - سنة ١٩٩٣ - الثقافة الجديدة .

* راوية « الدحيره » - سنة ١٩٩٤ - على نفقة المؤلف .

* راوية « المحسوس والملموس » - سنة ١٩٩٥ - المجلس الأعلى للثقافة

* راوية « المقطوع والموصول » - سنة ١٩٩٦ - كتاب فاروس .

* مجموعة قصص « شهوة الموقف المتحرك » - سنة ١٩٩٧ - دار الوفاء لدنيا الطباعة

* دراسة « الفن فى موكب الوعى » - سنة ١٩٩٨ - دار الوفاء لدنيا الطباعة .

* رواية « المسخوط من سيرة على بلوط » - سنة ١٩٩٨ - دار الوفاء لدنيا الطباعة .

* رواية « الليل وجبروته » - سنة ١٩٩٩ - دار الوفاء لدنيا الطباعة .

الفهـرس